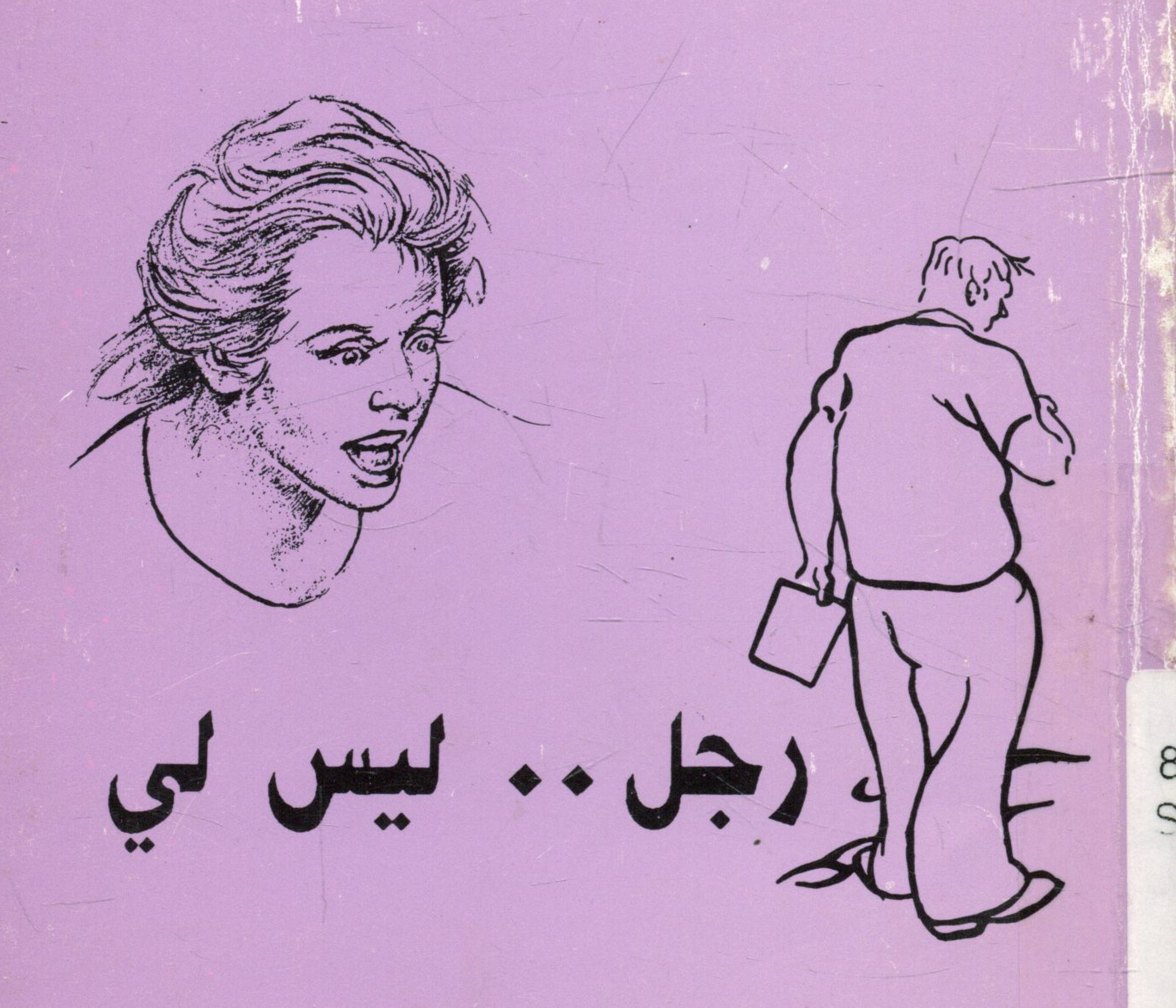
احسان سليم شرباتي



رجل.. ليس لي

المنهل

رجل .. ليس لي

احسان سليم شربجي

رجل .. ليس لي



دار المنهل للطباعة والنشر
دمشق - ص ب ٥٨٢٢

دار المنهل للتأليف والترجمة والنشر
ص ٠ ب ٥٨٢٣

مطبعة الصباح

دمشق ـ هاتف ٢٢١٥١٠

عدد النسخ (٢٠٠٠)

الاهداء

إلى رجل عرفته بروحي

ورأيته بقلبي

وتركته يعبرّ فوق يقيني .. فأشتدت رؤيته وضوح ..

الرجل الحبيب الذي نام في وجداني طويلاً ..

محمد أخي أهدي هذا الكتاب

إحسان

عصفور النار

المقدمة

«قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ "شيخي هل عرفت الهوى ؟"

فأجاب الشيخ :

"اذهب يابني وهل هناك شجرة لم يحركها الهوا ؟" .

اتعرفون حكاية عصفور النار ؟ ...

قبل أن تعرفوها دعوني أقدم لهذه الصفحات، على كرهي للمشي بالمباخر والطبول أمام المواكب. إنها قصص وليست بالقصص. قد لايمتلك معظمها من مقاييس القصة التقليدية إلا الظلال المعبرة واللمحات. ولكنها في الوقت نفسه لوحات تصويرية لمواقف بشرية مكتوبة بقلم حنون قدير التعبير والإيحاء، يمتلك كل

خصائص الأدب القصصي وإمتاعه الرفيع. إنها قطع من الحياة تركت الكاتبة مطالعها تُخَمّنُه كيف تشاء وتركت لك النهايات سائبة مع الرياح، واكتفت من هذه وتلك باللحظة "الحرجة" لحظة الأزمة والاختناق.

وعلى الرغم من أن هذه اللحظة تكاد تنحصر في دائرة الحب، فإنها ألوان ناعمة أو عنيفة من هذا البحر العجيب الذي يجرفنا جميعاً راغمين، ويهز في داخلنا ينابيع المشاعر والرؤى، نحن جميعاً طحالب مرمية في هذا المحيط على مده وجزره تطوف مع موجه أنّى طاف الموج وتهتز كيف اهتز.

أيظن أحد أن حصار القصص بالحب مجال ضيق محدود للقصص؟ أنه كدوران الدبور في الدن المغلق؟ إن مجال الحياة أرحب بكثير من أن يضيق عليه؟

قد يكون ذلك من بعض وجهات النظر، ولكن لنتذكر أن القوى التي تمسك الكون أن ينهار إنما هي علاقة حب. هي قوى تجاذب لاتدري كنهه، من الافلاك

الكبرى إلى عالم الذرة والنويات، إنه سر الأسرار وقانون القوانين، وأين أطللت منه فأنت مطل على جميع آفاق الحياة .. ماعليك فقط إلاّ أن تتوسع في النظر

* * * *

وصاحبة هذه القصص قدمتها إليّ مع مجموعة قصصية أخرى مطبوعة، ماكنت أعرف فيها الاسم ولا المسمى واعترف إني تمتعت بقراءة الكتابين. كانا كشفاً ... كانا واحة مغايرة لما أنا غارق فيه من الشأن .. واحة شديدة الإغراء .

ولم تكن المتعة في هذه المغايرة فحسب ولكنها كانت في ذلك النسج القوى وفي ذلك النفاذ في التحليل وفي تلك البساطة في "المواقف" الملتقطة من صميم الحياة العادية التي نعيشها دواماً، لكن الكاتبة التقطتها وصعدت بها إلى مستوى "الحدث" الفني والموقف المثير الذي يقرأ ويمتع ويستحق التسجيل.

وهي إلى هذا مرسومة بشفافية ناعمة قلما عرفتها الأقلام.

الكاتبة على طراوة عودها تدهشك أحياناً بتحليلها الدقيق وأبعادها النفسية الخصبة، إنها لم تفتح لي باب الأمل بأقلام الغد فقد كنت دوماً أؤمن أن باب الوعد لاينغلق أبداً، أؤمن أن في كل صباح زهرات جديدة تتفتح وبسمة ربيع تجدد أمس الحياة. لكنها أكدت لي أن ثم دوماً مايمكن أن يقال ويمتع، ثم دوماً أفق رائع يكتشفه الآخرون. وثم دوماً مزيد من الايغال في كوامن النفس البشرية ودهاليزها الحميمة على أطراف قلم كالبرعم المسنون.

ولكنه القلم المزهو المتمرد في وقت معاً كهذا القلم.

والكتاب كله تمرد، في كل جملة، في كل كلمة، في كل حرف رفض. وإن يكن متلفعاً أحياناً كثيرة بهمس الحب. إنه كبرياء تنفض أكفانها وتبعث ذاتها للحياة كالصفعة، ولكن بقفاز حريري، إنه تمرد ولكن

من نوع غريب تخاله يتعمد الإثارة والمفاجأة والعيش فيما وراء المنتظر.

أهو حب الإثارة ؟

أهو خيال مفجوع ؟

أهو ثورة عنيفة على عبودية المرأة منذ كانت المرأة؟

لست أدري فموانئه مجنونة وأشرعة سفنه ممزقة على الآفاق، وموجه العميق طلعه كأنه رؤوس الشياطين! ولعله لذلك يثيرك ويدفعك إلى متابعته والركض على الأسطر لعلك تستبق المفاجأة التي تنتظرك في المنعطف .. كل منعطف !

لواعج الأخت التي سرقت منها أختها حبيبها منثورة بكل مدها وجزرها على عدد من الصفحات لاتستطيع تركها دون أن تتمثل المأساة كاملة بأعمق مافيها، وتحس أن شيئاً من تحت الأنقاض يستيقظ فيها، "وجهي الحقيقي" حالة من حالات التمرد قلما مارسته انثى في الماضي، ولكن من ذا الذي يضمن

ألا تكون حالة عادية اليوم أو غداً؟ إن فيها كل كبرياء الأنثى ولذعها المجنون، وفي الزيارة الليلية للمقبرة إطلاله على العدم بكل تهاويله وشياطينه، كأنها الكابوس، ولكنها رفض للعادي والمبتذل واليومي متجاورة مرة واحدة إلى ماوراءه.

الفلسطينية التي انتقمت لهوانها ومذلتها جميعاً في لحظة كبرياء فقتلت طفلها وزرعت السكين في رقبة أبيه الخائن، الفتاة الرسامة التي أصرت على مشاهدة الموت في المشرحة ثم رسمت حبيبها بشكل أمها فمزق الصورة ومزقت هي بدورها حبه .. كل هذه فواكه محرمة وجديدة في السوق القصصية، لا النعومة فيها ولا الحكاية ولا الهدوء ولكن الظفر الناشب الممزق، والتحدي للواقع المألوف. إن وراءها البركان الذي ماتزال تغطي سطحه المروج الخضر!

بلى! قد يكون في قلم هذه الأديبة ظلال وومضات من كاتبة أخرى ممتعة محلقة، يعشق أسطرها الكثيرون، ولكني أكاد اثق بأن هذه الصفحات فيها بدورها مايحاول اللحاق بكثير من النجاح.

لقد تجاوزت بها صاحبتها باب الهيكل الأدبي إلى صدره ورموزه، شطحاتها الثائرة الرافضة كأني بها تنتقم لكل عصور التبعية والكبت والعزلة التي داست شخصية المرأة وسحقتها حتى اليوم.

شيء آخر في هذه المجموعة الصغيرة هي أنها تحمل من الجرأة أكثر مما اعتدنا أن نعرفه من جرأة الأقلام، إنها تعريةٌ للذات البشرية في جانب من أعمق دخائلها حيث يتعانق الخير والشر ويصطدم فيها أعنف الحب مع أقسى البغض تحت ستار كثيف من الصمت الاجتماعي المطبق.

في القصص الكثير مما يتمنى الكثيرون قوله أو فعله فلا يقولون ولا يفعلون، يتركونه تحت قشور اجتماعية من قشور السلاحف أو صلب الغرانيت أو يرمونه ظهرياً على أنه من عالم الرؤى أو الغيب أو الأحلام المرعبةٌ، يخفونه وراء الأقنعة، والأقنعة سيدة المجتمع بكل مكان وكل منا قبل أن يغادر منزله، يلبس فيما يلبس قناعه الخاص.

والكاتبة تمد يدها إلى بعض هذه الأقنعة تحاول تمزيقها والخروج بما فيها من تهاويل اللاشعور وعقد الأفاعي إلى السطح إلى النور كأنها تريد أن تقول مزقوها هذه الأقنعة إنها لم تعد تستر شيئاً، إنكم عراة!

* * * *

وأعود أخيراً إلى عصفور النار :

يروون أن الله «جل جلاله» حين خلق النار فيما خلق أعجب بلهيبها المندفع كألسنة التنين ووهجها المتوقد كالشموس الحمراء، وضراوة أنفاسها، ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب، فأتى بالخلق يتفرجون إلى عظيم ماخلق البارئ المصور، وبقي الجميع على مبعدة من نار الله الموقدة إلا عصفور صغير استهواه التألق فأقترب واقترب واقترب، حتى لذعت النيران جناحيه وأحرقت بعضها، منذ ذلك الوقت ظلت أجنحة هذا العصفور محترقة ملونة بلون النار.

إحسان (؟) أخشى أن تكوني ذلك العصفور !

شاكر مصطفى

وجه داخل

جرجي

عزيزي أحمد

ذات جراح .. صحوت .. فوجدت نفسي مبعثرة في قبضة يديك، وعيوني تبحث عن بقاياها في مرافئك المجهولة، يومها قدمت لك نفسي .. حقيقتي ... وكانت أوراق اعتمادي تذكاراً من جنون.

أتراه جنوناً أن أترك ذاك الوميض الصامت يعبث بأيامي .. أم تراني كنت وهماً تسكع في دائرة حلمك.. لا أدري . لكني اليوم أقف على عتبة أيامي أنادي واستصرخ ألماً توغل كنت أنت مداه وأطالب بدقائق عمري التي خلفتها لك لتتركها شريدة في قاع عرشك وتسألني قولاً .. ماذا أقول؟ هل تراك وقفت يوماً أمام البحر .. لاشك إنك توقفت أمامه مرات، ولكن ألم

يخطر ببالك يوماً أن ترميه بحجارتك .. لقد فعلتها أنا ذات مرة .. فعلتها كي أستمتع بالدوائر التي ترتسم حول الحجر الملقى لتتسع حولها ثم تكبر. هكذا فهمت النفس البشرية بكل عمقها وأبعادها، ولكن الإنسان لايرمي بحجر، بل بشيء آخر .. إنه هزة بسيطة في قاع روحه لتتوالد الدوائر حولها ثم تكبر.

معك أنت فعلت هذا .. كنت الجأ لتلك الهزات الصغيرة كي أعكر الموج الراكد في أعماقك ليطفو على السطح فأعرف من تكون .. وكنت بهذا كمن ينبش في الأعماق ويبحث عن اللآلئ وهل كان يوماً صيد اللؤلؤ سهلاً هيناً .. لاشك إنه استعصى حتى على من كان خبيراً به وكلفه من الجهد والتعب الشيء الكثير .. لكن المتعة تنسي كل العناء .. هذه أنا أدمنت صيد اللؤلؤ والتوغل في الأعماق ولم أبك يوماً على الجراحات التي تكويني في رحلتي إلى القاع .. ولم أحزن عندما لاأجد بعد التعب إلاّ الحجارة .

وأتيت أنت .. حبيباً احتل كل مساحاتي .. وفاضت روحه في ابتسامة وجهي .. وتسلل حزنه إلى أتون ألمي فأشتعل حريقاً .. لماذا أنت ..ألأنك كنت رفيق دربي في ذلك الحي العتيق؟. أم لأنك تحمل جراحاتك بصمت الليالي ولا تبالي؟، لماذا أنت؟. لاأدري لكني كنت أشعر رغم انوثتي الخجلة أنني اتسرب من شعاع رؤياك بدفء غامض وأنك كنت رحيق أيامي القادمة.

كنا في الحي الوحيدين اللذين تعلما، لكنك كنت أجمل شباب الحي وأكثرهم رجولة، كنت رغم عذاب أيامك ثورة الحي، ولم أكن كذلك .. كنت فتاة خجولاً لاتخلف بمرورها عاصفة ثورة ولا تترك وراءها رماد الانتظار، لكني كنت رغم ذلك واثقة قوية بل أكثرهن قوة أعبث بترفهّن وضجيجهن وأعرف يقيناً أن قلب الرجل لايتسع إلا لمن كانت تبحث عن ذاتها في رحلة الكون مملوءة بالتحدي والقوة .. وكنت أعرف أنك يوماً ستراني من الأعماق كما رأيتك.

وكثر الكلام حولنا .. الكل ينتظر .. ولكن الانتظار طال كثيراً .. اطبقت على نفسك شرنقة الصمت والهدوء وتواريت خلف نظارتك وأكداس الكتب حولك تنهل منها، ونسيت في غمرة علمك وجهك الآخر .. لكني لم أنسك أبداً .. بقي وجهك مرآتي وطموحي .. وبقيت طائر الفرح يغرد في أعماقي.

ومرّت الأيام .. وقافلة الزواج في الحي ترحل ولاتخلف غيري وحيدة انتظر .. وتمر السنون لتبقيني شارة استفهام في أعين نساء الحي المنتظرات. ويوغل ألمي جنوناً وأنا أرى شبح الرعب يطل من عيني أمي وهي تنتظر طارقاً لم يأت وكيف له أن يأتي والمسافة بيني وبينه تكبر، وأنت لم تزل حلماً أمام عيوني يعلن عن ضوء النهار لكنك خرجت من صدفتك بذات الهدوء الصامت لتكسر رتابة الحي الراكد وتجلجله قرعاً وطبولاً.

جاءتني أمي ذات يوم لتقول : اليوم فرح أحمد، وأبعدت نظراتها الكسيرة عني خوفاً على روحي من

الضياع ولم أقل شيئاً وكأن الأمر لايعنيني، لكني في الأعماق كنت أشعر أنك ترميني بحجر؟.

وحمل أهل الحي بقية النبأ .. سيتزوج أحمد من كوثر تلك الفتاة القوية اللعوب، وسألت نفسي ألم تشعر بقوتي أم تراك تريدني لعوباً كي أكون .. لماذا هي تصغرك بأعوام، وأوغل ألمي لهيباً .. لماذا هي؟ .. وأطبقت جراحي بيدي أدميها ألماً ولا أبوح.

ومرت الأيام لاتحمل جديداً سوى الرتابة والملل، أذهب صباحاً إلى عملي، وأعود في المساء ترمقني نساء الحي بذاك الوميض وليس في جعبتي إلا تلك البقية من الثقة وهذا الحس الداخلي بأني لن أكون إلا ماأريد.

واليوم أفتح أوراقي بصدق امرأة بين يدي راهب يتلو قول الله لاحدثك بعد أن أوغل صمتي في أحداقك جراحاً وألماً .. ياسيدي أنا صائدة اللؤلؤ .. كنت يوماً أصطاد.

لكني وفي كل مرة كنت أعود من رحلتي بشيء أو بلا شيء، ومعك أنت كان الوضع مختلفاً لأني كنت أعرف أصدافك وماتخبئ، لهذا حاولت النبش في الأعماق والرحيل إلى القاع كي تصل أنت إلى شاطئ أمان .. لأني أعرف القاع وما يحتويه وما أريده هو أن تعرفه أنت .. لأن من يعرف الشيء لايخافه.

سألت نفسي من أنت .. فجاءني الجواب مخبوءاً في عينيك .. مجبولاً بخوف السنين .. أنا الهزيمة التي ماعرفت يوماً الطريق .. أنا .. وبخجل وخوف تستكين أعماقك لذاك المجهول الذي يرقد في القاع ولا يستبيح نفسه للآخرين .. لكنك أنت شيء آخر ..

أنت مزيج من ذاك الطفل الذي وعى الحياة تنافر ألوان وهذيان مجنون .. والشاب الذي لم يكتمل شبابه على أرض صلبة ولكنه جبلها بالتعب والصمت كي تتسع لخطاهُ ... والرجولة المقهورة .. واحتارت المقل في العيون .. أنا، إذن جمرة مطفأة في موقد الأيام وطريق لايملك خطاه ..

وماذا تملك بعد أن عاد الهدوء يغلف رماد أيامك.. بعد أن أخذ منك الموت رفيقة العمر وخلفك لذاك الصمت الرهيب وتركك للحيرة تتوارى بك عبثاً مع الأيام..

ياسيدي أنت مزيج من كل ذاك .. لكنك أيضاً القوة في الأعماق، وصرخة الصمت التي لم تبلغ الشفاه، وتسألني عيناك .. اتراه ضعفاً .. إنه قسوة الليالي وعبث الأيام وتراك في هدأة الصمت تكشف جراحك للعيون ليظل جرحك نازفاً في العراء .. وترتد إلى الماضي السحيق إلى أول صدر احتضن بسمتك الفرحة وبكاء عينيك .. فترى جراحك وتلمس حجم الأنين، تلك هي من رعت طفولتك واحتضنت شبابك، تلك التي تقبض على الشمس بيديها ولاتبالي .. صلبة واثقة .. لكنها حنون، فبدلاً من أن تعطيك الثقة مع الحب، القوة مع الإيمان، تركت جرحك مكشوفاً للعيون لكنها حاولت أن تقسو وتتصلب كي تقف إلى جانبك،

وبكل الحب الذي تحمل لم تكن تداوي بل كانت تزيد الجراحات عمقاً في تكوينك .. لكنك بدلاً من الاعتماد على نفسك أصبحت تعتمد عليها، بل وتكرست في أعماقك تلك الهزات فآمنت بوجودها .. واستسلمت لها .. ومشيت في طريق مسدود..

وأطل القدر عليك مرة اخرى ليقهقه ساخراً .. عندما قدم لك انثاه وترك لك الحرية في الخيار .. وأنت لم تكن تدري أنه ليس خيارك، وأنك باللاشعور تبحث عن انثى ترقد عند سفح تكوينك لها ملامح القوة التي أحببتها في أمك .. وأن حالة الانبهار التي تشعرها تولد عند تلك التي كانت قدرك مزيداً من الثقة بالنفس.. مزيداً من الغرور وانها هيأتها وسلحتها بكل ماتملك من أسلحة الدمار..

واستسلمت لها .. فاضت روحك شفافة أمامها .. فابتلعت مافيها من بريق .. وعشقت في تلك الروح شكل المستحيل وخوف اليقين .. وعبثت كالطفلة

بدميتها ترميها كيفما شاءت وعندها الثقة بأن الدمية عصية الدمع وأنها لن تشتكي ولن تغضب، وأنها تملكها بكل مافيها .. وكنت أيضاً توغل ألماً، وتصدق أكثر تلك الأكذوبة .. الوهم .. القوة التي تشعرها هي وتحرم أنت منها، رغم إنك من منحها تلك القوة وأهداها ذاك النصر إنك هكذا تحتمي بقوتهم .. وتصدق تلك الأكذوبة .. وتعيش لأجلها مسوّراً بالأغلال تخاف بفقدها أن تفقد الطريق وتعود من رحلتك تلك مسلوباً عارياً لاتستطيع المسير ويوم عدت وحيداً .. وعادت العيون تهمس بأن فتاة الحي ماتزال تنتظر .. عادت نظراتك تداعب رمال طرقاتي وأفياء الحلم القديم في مخيلتي .. لكني رغم فرحي لم أقبل ولم أرفض وتركنا الأمر بيننا مغلقاً بدائرة حب ومساحة وجد تجلوها الأيام ..

لكنك شيء آخر وأنت لاتدري .. أحببتك منذ أمد طويل .. دخلت عالمك .. فتحت لك أوراقي وبعثرتها

أمامك بلا تكلف .. لكني لم أكن أعبث بما أفعل، أو بما أقول، كنت أتحدث بكل ثقة وفخر وأدع الآخرين يحدثونك عني لتزداد الصورة في عينيك وضوحاً لكني بين حين وآخر كنت أحاورك بضعفي وأحاور رجولتك بصمتي كي أستصرخها، كنت ألقي الحجارة في بركتك الساكنة لترتسم الدوائر حولها ولكن ليس كي أراها .. بل لتراها أنت .. كنت فقط مرآتك التي ترى فيها نفسك بعمق. أجل هكذا فعلت لأني أحببت فيك ذاك الرجل الموغل في الأعماق الذي عرفته وحدي ولم يملكه غيري، عرفته حتى قبل أن تعرفه أنت .. إنه الرجل الحقيقي الذي يعيش داخل أعماقك تركته في الظلمة والعراء مهيلاً عليه تراب النسيان. مغلقاً دونه صفحات الذكريات.

وعرفته أنا .. عرفته بصمت كما لم يعرفه أحد قبلي .. عرفته قوياً فلم أستبح قوته كي أسخرها لخدمتي لن أفعل بل زرعته على طول المساحة الممتدة

في أفق أيامي مغروساً في أحداق عيوني، تركته لغضبه وثورته تارة، ولهدوئه وصمته تارة أخرى.

والآن هل أدركت لماذا تركتك أحياناً لحيرة الاختيار .. ولماذا دعوتك يوماً لوليمة الغيرة تقتات منها غضباً .. إنها مواقف صغيرة أردت بها أن أجعل الرجل فيك يدوي في أعماقك صراخاً وتستقبله نفسي ليكون صداها وهواها.

لست ضعيفاً رغم آلامك .. فالألم العظيم يصنع الرجل العظيم.

هذا أنت فدعني أبعثر جراحاتك ألقيها للمدى .. للأمس .. وليبقى وجهي مرآتك كي ترى من تكون وعندما تلمس الطريق وترى الأفق أمامك ممتداً إلى المغيب ستحتضن قوتي تبتلعها .. وتهمس كي تحاور الأنثى في تكويني عندها أكون.

لكني أنا بصمت .. بضعف سأبتعد .. ليخلفني المدى لوحدتي .. لشرنقتي

فلربما كنت يوماً أحبك، لكني بضعف أنتظرك طويلاً، وربما لأن الرجل فيك وهم أحببته لأنه زادني ثقة وغروراً .. لكني رغم كل شيء سأبتعد قبل أن نبدأ الطريق .. سأبتعد فلن أقبل رغم كل الحب .. لن أقبل أحساسي ويقيني بأنك كنت أنت الخيار الوحيد.

١ / ٢ / ٩١

وكان الآخر .. وهماً

لاأحد يستحق رؤية وجهي الحقيقي .. قلتها شبه باكية وأنا أركض هاربة مذعورة من نفسي .. الملم ورائي اعترافاته الهادرة وأرحل .. لم أحزن لذلك .. فللحزن طعم مرير أدمنت شرابه حتى تحول في جوفي لطعم مستساغ شربته على مرّ الدهور .. ولكنّ لبكائي اليوم طعماً آخر، طعم الانتصار الذي أحلم، الانتصار الذي أحب، انتصاري بانتزاع اعترافه ذلك الصديق الذي تعودت أن أطرق بابه كل يوم.

لاأذكر كيف التقينا .. ربما التقينا قبل مر الدهور .. وربما التقينا في مدار آخر يومها سألته عن هويته فأجاب: أنا التعاسة التي تأكل نفسها، أنا اللاوجود جراح منسية في قاع الصمت والعدم، وكنت يومها شراعاً تائهاً أجوب بقايا السنين، ابحث عن شطي في «كرنڤال» من الضياع، طفلة أضاعت عالمها ولم تجد من يبكي عليها ولا استطاعت البكاء على نفسها .. وتعارفنا ..

كنت أذهب إليه كل يوم في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار أطرق بابه طالما دفعتني الرغبة في ذلك، فأنا أحب أن أرى متعة الحياة داخل أعماقي يومها سألني : أي الألوان أحب إليك؟، وكان في وقفته احترام مصطنع لم يحاول السيطرة عليه وكأنه عاش طويلاً في بلاط السيد الحب أو أنه يعتلي خشبة المسرح ليمثل من خلاله قصة ما. قلت له «وكان يريد من ذلك إهدائي ورداً بلون أحبه» أحب لون الحقيقة ..

تجاهل عبارتي وقال الأبيض !! قلت : لون النقاء والحقيقة غاب مع رياح الصقيع وصمت الموتى .. رحل ممعنا في النسيان وغاب وجهه في الدروب الضيقة التي أكلها الموت.

قال : ربما الأحمر .. قلت : الأحمر بلون دمي الذي يسيل نازفاً من قلبي يلتحم بمودة على ورقي أنزفه من أعماقي وأنزف معه نصف الحقيقة التي أبوح بها وسياط من العذاب ونظرات الحقد التي تزرع الجمر في مسامي على ماخطّه قلمي .. صدقي حقيقتي .. وغيرة من أحب تحنط أعماقي .. تقتلها .. ، قال : ليس لك إذن إلا الأصفر ؟ قلت : فيه انصاف عشاق وحب يعايش بداية النهاية فيه موت معلن وهروب واستسلام، وأنا لاأحب أن أستسلم إلا لمن أحببت أستسلم لدفء عينيه يخدرني ولا أفقد طريقي .. ضحك نصف متخابث وقال : ستقعين يوماً في أعماق من تحبين وستجدين نفسك مسوقة إلى حتفك مغمضة العينين، أجبته قائلة الحب حالة إنسانية

يعيشها المرء بكل دفئها وجمالها، لاغالب فيها ولا مغلوب، وأنا لست جارية كي أساق إلى حتفي ولا أنتمي لقافلة العبيد. أنا أحب ضمن مفهومي لحريتي وكرامتي، أحب دون أن أفقد نفسي ووعيي. حبي للرجل جزء من يقيني وانسانيتي وهذا غير قابل للتحطيم، وبابتسامة باهتة حاول تغيير مجرى الحديث وقال : ماذا تريدين إذن وأي باقة ورد أقدم لك .. مالونها؟.. قلت : لونك الحقيقي .. طعم اليقين في أعماقك هذا ماأريد، وأكدّ لي بعدها مراتٍ كثيرة صدقه في كل مايقول .. وكانت القطة المتوحشة في داخلي ترفض اعترافاته باللاشعور وترفض زيف صدقة وطعم الحقيقة المزعومة في فمه التي دنستها الرغبات المكبوتة والحرائق المشتعلة التي يحاول إخفاءها عن العيون.

لكني مع هذا بقيت صديقة له ألجأ إليه أغرق في عينيه بئر السخرية والتحدي في أعماقي فلقد كان كل مايدور حولي بلا معنى .. وألفت الذهاب إلى ركنه

الدافئ لا أدري لماذا : ربما لأني كالقطط أعود إلى حيث اعتدت البقاء، وربما لأن الزهور تغطي المكان وتشعرني بالدفء يتوغل في الأعماق، وربما لأن أول باقة ورد قدمتها لمن أحب كانت من هذا المكان، لاأدري .. لكني شعرت مع الوقت أنّا اصدقاء .. كنا نتحاور دائماً بلا هدف، فأي مادة تصلح للحوار بيننا خاصة وأنه يحمل شهادة جامعية وله عمل مكتبي إضافة إلى محل الورود هذا .. لكني لم أستطع أن أجوس أعماقه لأن الاحترام المصطنع الذي يحوطني به يمنعني من معرفته عن قرب، واكتفيت بهذا فأنا لاأريد منه أكثر.

وكان لي عالمي الخاص الذي أعيش من خلاله طقوسي وصداقاتي وعملي، كنت التف حول شلة من الأصدقاء والرفاق، وكنت كلما خرجت من عملي منهكة متعبة ألجأ إلى هذا الركن الدافئ أغرس نظراتي في أرجاء المكان واستسلم لخدر اللون الأخضر يحوطني من الأعماق .. أحس بالهدوء

الداخلي في أعماقي فتخرج الكلمات ثرثارة تبوح له بآلامي وأيامي، وتحدثت كثيراً.

كان أول لقاء لي مع من أحب مع سعيد رئيسي في العمل في ذلك المكان،أنبش ذكرياتي الآن في جعبة أيامي كصدفة تكورت خارج رحم أمها تبحث عن الحنان، يومها كنت أقدم إليه أوراقي عندما نحّاها جانباً وقال : هالة كم أنت جميلة اليوم!.. وشعرت بانتصاري فلقد تسلل إلى داخلي واستوطن هناك، كان من النوع الذي أحب.

ولم أملك إلا أن أبتسم مزهوة .. وأرسلت نظرة إلى جسدي الذي لفحته الشمس وتحسست بشرة وجهي الأسمر. وبيقين أنثى تعرف كم هي جميلة نظرت إليه بحنان .. بغرور .. ولم أقل شيئاً ..

قال : كيف تقضين أوقاتك بعد العمل .. وبإيماءة من رأسي أجبت لاشيء.

وبعدها دعاني إلى نزهة قصيرة وكنت سعيدة. فهذا النوع من الرجال يعجبني، نظراته الجريئة، تجرد الأنثى في داخلي تلتحم برفق مع قلبي وتلامس بعذوبة

وقع عيوني .. وقبلت الدعوة .. وعندما سألني أين رسمت له الطريق المؤدي إلى محل هيثم بائع الزهور والمحبة، وكنت قد سبقته إلى هناك لأفاجئه بعقد ياسمين أهديه له، فأنا لست تقليدية في عواطفي وسلوكي كالأخريات .. كنت دائماً أحس أنني امرأة مختلفة أزحف عارية باتجاه قدري على زجاج مكسر ولا أبالي، وحملني في سيارته وانطلقت بنا.

كان الغروب يتسلل برفق خافت بين الأشجار، ويبتعد الضوء قليلاً كي يفسح لليل طريقاً ليتسلل رامياً ستائره السود فوق أرض المدينة، كانت الأضواء عيوناً مشتعلة تشتهي صادقة ان تسمع مايدور بيننا، تسترق السمع متلصلصة فوق أعمدتها لمعرفة مايدور كعجائز أدمن الانتظار والترقب وعندما توقفت السيارة همس بحنو صادق انظري إلى الأفق، وتمنيت لحظتها أن استحم في أفق عينيه، ولم أقل شيئاً، ونظرت إلى البحر الممتد أمامي كخابية خمر حزينة تركها صاحبها دون أن يتذوق طعمها ولو لمرة واحدة ورحل إلى الأبد

فبكته بدموع لا لون لها وتمددت قليلاً على الشط كي تستريح من عناء الانتظار الذي طال، وكنت سعيدة وعندما اقترب مني أحسست بأنفاسه العطره تنفث في الأنثى التي بداخلي ألواناً قزحية تحاول أن تقول وامتدت يده إلى شعري الطويل الأسود وقال لي وهو يداعب خصلة فرّت بلا انتظام، شلعرك يشبه الليل في مملكة العشاق.

ابتسمت له وأرحت شعري على كتفيه وبدأت أحلـم ..

كنت أحلم دائماً بوجهه يطل مع ضوء القمر فاراً من الوجوه يضع بين يديه ألواناً من الحب الذي أريد.. لكن حلمي كان قصيراً وليلي كان آخر، وبدأ يتغير ..

بدأت هوة من الوهم تخترق عالمنا معاً، ولم أعد أدري ماذا يريد .. فبين صد وجفاء .. بين حب وعودة أمضينا أياماً من التشرد في بلاط مملكة الحب.

كنت أرى الغيرة ترتسم ألواناً فوق عينيه آراه ممزقاً بين الحب واللاحب يريد ولا يريد.

كم من مرة أعلن اعترافه بتفوقي في عملي .. وكم من المرات التي اشعر أنه يريد لي أن اتوارى عن الأنظار حتى لاتخطفني العيون. ولم أعد أحتمل .. وحاولت جاهدة أن أنبش مافي الأعماق فلقد سئمت الأمعان في النسيان ولعبة التخدير، وكان لابد للثورة أن تعترض طريقنا ويثورة غضب مجنونة صرخ في وجهي ..

هاله : اريدك حبيبة تخصني دون سواي، قلت أنا لاأملك جسدي وعقلي وروحي إلا مرة واحدة ومع من أحب، وأنا أحبك فعلاً وهذا معناه أني لك وحدك ماذا تريد أكثر من ذلك؟ قال : لا أريد أن تراك العيون لا أريد نظرات الناس تأكلك حتى وأنت إلى جانبي .. لا أريد ..

قلت : لكني بحاجة إلى عملي كي أشعر بوجودي، بحاجة إلى قلمي كي يتدفق زمن الحب والخصب من أعماقي .. واختلفنا ...

يومها رفض الاستسلام لقراري، ورفضت

يومها رفض الاستسلام لقراري، ورفضت الاستسلام لقلبي، رفضت كل العطاءات المقدمة من عينيه.

وبكل حبي رفضته، وكان لابد لي بعدها من الهروب والنسيان لابد لي من الاغتسال بمياه البراكين المتفجرة والعبث بالحرائق والأبنية المتداعية في أعماقي، وانفصلت عن بحري المتلاطم وعمقي داخلياً، وبقيت متماسكة ظاهرياً أحاول أن اتابع عملي وحياتي الاجتماعية بكل هدوء، لكنني في الداخل كنت أجوس عوالم من التشرد والقهر الدفين في أعماقي، وعندما كنت أدخل إليه أحاول وكأنية امرأة قوية أن أظل متماسكة لا أنظر إليه وعند خروجي أصفع الباب خلفي بشدة وكأني أوقظ كل بوابات العالم وأرجوها أن تقفل أبوابها في وجهي كي أبقى معه ومعه فقط وجهاً لوجه، وعندما كنت أتعب من هروبي هذا ألجأ إلى البحر في الأمسيات الحزينة والغروب يودع الكون، أتكور في زاوية ما كنا قد ذهبنا إليها معاً، كقطة وحشية وأسمع صوته قادماً من البحر يوقظ في

داخلي نساء العالم مجتمعات وأقهرهن جميعاً وأرفض الامتلاك وقيد الجواري وأعود بحطامي هذا من رحلتي تلك لأمارس عملي من جديد بذات الوجه الاجتماعي الذي لايحمل خلفه إلاّ الحطام، وأعود إلى صديقي أتأمل الأزاهير التي يمنحها لأنصاف العشاق يلفها لهم بأوراق (السلوفان) بشكل اعتادته يداه ومع كلمات المجاملة يقدمه ويستوفي الثمن، ويدفعون ثمنه ويقدمونه كقناع جميل لمن يريدون امتلاكهن، وأدمنت الجلوس في ذلك المكان أدمنت النظر إلى تلك الوجوه المزيفة التي تشتري الورد لتقدمه كفخ جديد في عالم المغامرات الحافل بنساء ماعرفن يوماً متعة المعرفة ولا حطمن وجوه الراحلين. كنت في كل مرة أجلس هناك أذكر «سعيداً» وترتسم في داخلي ملامح وجهه المشرقة وشبح الخوف والدهشة الذي أطل من عينيه عندما قدمت له باقة الورد وكيف شكرني بحرارة وأعرب عن إعجابه بشخصي (وبلا تقليديتي)، ووصفني بأنني قوية وأنه يحب قوة شخصي ولا يستكين أبداً

لنساء ذليلات، لكني لم أفاجأ أبداً ذات يوم عندما ذهبت إلى مكتبه .. ووجدتها ..

كانت في العشرينات من عمرها، جميلة نقية .. وكأنها استحمت للتو في بركة الحلم .. في عينيها براءة ممزوجة بغباء واضح، وكم شعرت لحظتها بالغيرة تجاهها وصفعني صوته القادم من أعماق غربته ليقول .. إنها هالة .. محررة نشيطة في المجلة، ونظرت إليها ساعتها بعيون حاقدة ولم أقل شيئاً ..

لم أقل لها إني كنت الحبيبة التي سبقت .. وأومأت لي برأسها بابتسامة بلهاء قصيرة رمقت بها قامتي وشعري بإعجاب واضح، وأكمل هو دوره عندما قال فاتن خطيبتي .. وكانت المفاجأة .. كنت أعرف حقاً أنه يحب الأنثى العابثة التي بداخلي، ويحب ذكائي اللماح الذي حذرني منه طويلاً، ويحب شعري الأسود الذي اعتاد أن يرعاه بيديه، ولم أكن أصدق أنه سيرتبط بأخرى.

كنت أقول لنفسي أحدنا سيتنازل عن مطلبه، وكان تنازلي معناه نهاية طموحي وحريتي، معناه فقدان نفسي التي أحبها وكان تنازله معناه كسب حبي وملكيته لقلبي وانسجامه مع كل مايقول، لكنه رفض أن تكون انسانيتي المصداقية الوحيدة التي تقدم له، ورفضت أنا بالطبع تمثيل دور الجارية لأني لا أتقنه وخرجت من مكتبه أشعر بطعم الحريق في أعماقي ومرارة العالم تجتمع في حلقيّ وقلبي، أحسست أنه يرفض لأنه لايريد لي أن أكون سوى الجارية التي أحب، وأدركت أني خسرت، خسرت قلبي وروحي ومشيت طويلاً في طريق لا أعي فيه ماأفعل، أزحف عارية على زجاج مكسر طعمه رهيب، ولم يعد ممكناً الأمعان في النسيان ولعبة التخدير لأعصابي، وربما من غير وعي منّي بدأت تلك اللعبة .. أحاول اصطياد أي رجل يمر أمامي كي أقدم له انوثتي الخالصة، وعندما يطمئن إلى تلك الأنثى الجارية، أقف في الموقع

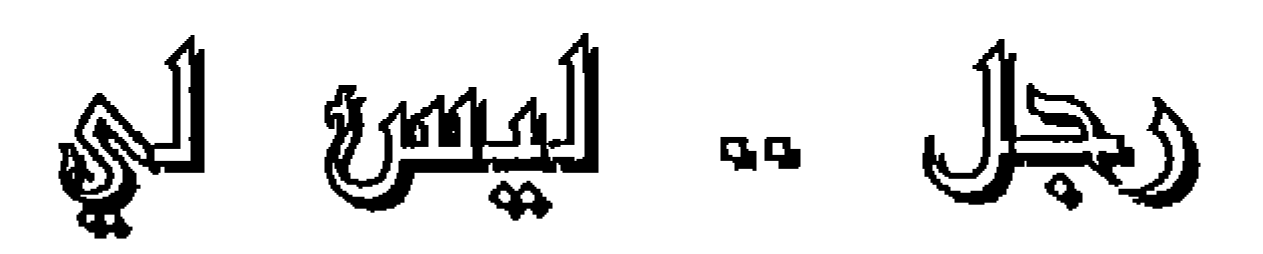
الآخر لأرفضه وأرفض مبادئه البالية وادير ظهري له وأبتعد.

وكان لابد لي وقد أدمنت اللعبة من ممارستها مع كل من حولي .. وكان صديقي بائع الورد أحد هؤلاء، كان هو الآخر رجلاً وكان بالنسبة لي ممثلاً حقيقياً في هذا العالم المزيف. وكان لابد من الوقوف عند قليلاً فتجريده من ذلك الخجل المصطنع وتلك الابتسامة التي تخفي وراءها الكثير ليس سهلاً. لكنني أفلحت في ذلك .. حدثته عني كثيراً عن طيشي ولامبالاتي، عن تحللي من تلك القيم السلفيه والأوهام التي يؤمن بها غيري، وعندما نظر إلي بجرأة بالغة أومأت له بعيني أن يكمل، وعندما تمادى أكثر أوهمته أنه الرجل الحقيقي في عالمي كله .. واطمأن بعدها كثيراً .. حدثني عن نفسه .. وعن انعتاقه من بحر الهوى وتكلم بفخر رجولي عما مرّ به من الأعاصير عما يريده في زوجه ومايريده في سواها وكان البعد مختلفاً،

وأدركت لحظتها أن أغلب الذكور ينظرون إلى المرأة بوجهين وتأكد ظني هذا عندما نظر إلي نظرة صيد ثمين وأحسست ساعتها أني فريسة في قفص من العراء .. عندها تكلمت الأنثى التي بداخلي بحقد امرأة ترفض القيد في عصر لايفهم معنى الحريم وقلت له ماأنت بنظري إلا رجولة مزعومة، ومفهومي الحقيقي للرجولة يختلف كثيراً عما تقول .. نظر إليّ بحنو مصطنع وقال : أنت تستهويننى كثيراً فماذا تريدين مني أن أفعل، أقدم لك الطاعة والولاء كي أظفر منك بنظرة، الحياة مسرح قصير المدى ياعزيزتي ولكل منا دوره الذي سينتهي قريباً، ولا أحب أن انهي دوري دون أن أقدم المرأة على مذبح وهمي كأرخص ماتكون الأشياء وثقي أن في هذا سعادتها، وبازدراء لم استطع إخفاءه قلت له :

لا أحترم رجولتك التي تظن فهي لاتعنيني مادامت إنسانيتك غابت وراءها وبدهشة حقيقية قال لي لماذا :

لماذا لم تعترضي قبلاً وتركتني أفتح لك سطور قلبي لتقرئي مافيها، لماذا غرست السكين في جرحي بعد أن أبصر النور معك، وبضحكة المنتصر وعبث الأنثى المجروحة بداخلي قلت : لاشيء لقد أدمنت هذه اللعبة منذ اليوم الذي ذبحني فيه الحب وأدمنت النزف من الأعماق، قال : ووجهك الحقيقي، قلت : لا أحد يستحق رؤية وجهي الحقيقي .. لا أحد يستحق .. قلتها باكية وأنا ألملم ورائي اعترافاته الهادرة وأرحل لأمارس لعبتي من جديد في عالم رجل آخر قبل أن أعثر على وجهي الحقيقي الذي أخفيته طويلاً وغيبته في مجاهل ذاتي الخائفة .. أسلمته للنسيان في محاولة بائسة لاسترداده ولا أدري متى يعود.


رجل .. ليس لي

كثيرة هي المعاني التي تحملها نظرتي تلك .. وجريئة أيضاً فيها قليل من القرف وكثير من الاحتقار .. فيها أيضاً ألوان من الكره الدفين الذي استوطن في قلبي كالصدأ المستوطن في أعماق الحديد التالف، لكنه لايعلم وأنى له العلم وهو بعيد عن هذا بعيد عن أي شعور وأي إحساس؟.

وكيف لمثله أن يعلم وهو يرى احتقاري ونقمتي ولا يبالي .. ليحلم بأطلال المدن وأنقاض القرى والرعب الحزين يطل من الأقبية المتعفنة أخرس يتدفق.

واليوم وأنا أرى طفلي ثمرة هذا الأرتباط .. التكوين الكائن من امتزاجنا معاً .. أراه وأشعر كم كنت أكره، وكم كنت أرفض.

اليوم لا كره ولا رفض .. لاشيء ابداً، مات إحساسي فلم أعدْ أملك من أمري شيئاً.

اليوم وأنا انظر إلى طفلي المشوه، أدرك كم استوطن التشويه أعماقي، وتوغل فيها.

أخرجني من ذهولي وقال : أنت أم حكيمه يجب عليك رعايته أكثر، إنه فاقد الشعور والنطق، إضافة لعاهته هذه، وكلي ثقة في أمومتك الطيبة كان الله في عونك.

لم أبد أي احتجاج على كلام الطبيب، بصمت حملتُ طفلي بين ذراعَي وفتحت الباب وخرجت.

كان الخريف يودع الأرض والشتاء ينسل في عروق بلدتي بهدوء متعب، والقمر يتدحرج عند حافة الجبل ليسقط صريعاً خلف جدران بيتي الذي احترق، تنبهت لحظة توقفت فيها عن المسير أذكر ذلك البيت في غزة جيداً، حين غادرته كنت صبية جميلة تساقط أهلها أمامها جميعاً مع تساقط الخريف وكان القمر يتدحرج خلسة خلف جدران البيت، كنت يومها مفعمة

بالحب والطفولة .. وكانت الشمس تنبت مساكب ضوء في ضلوعي، والفجر الوليد يغزل بالنور أضلعي وصدري لكني غادرته وحيدة، كنت البقية الباقية من نزف المعركة لأولد من جديد على الرصيف.

كنت أعرف أن اليهود سيغتالون أبي، هذا ماقاله حسن ذات مساء عندما أطل علينا يرتعد خوفاً وهلعاً، عندما فتحت له الباب كان النور المتعب ينسكب على وجهه، وطلب أبي ليحدثه على انفراد .. وقبل أن يطمئن إلى أني أغلقت الباب خلفهما قال : أسرع بالرحيل قبل أن يهرب الليل من العاصفة، قبل أن يئن الشفق اليما ولا تملك امره .. وسمعت كلاماً كثيراً بعدها لم أدرك معناه، كان ألمي يلتمع في شحوب البرد، وكنت كتلة من صقيع، تجمد دمي في عروقي حتى بعد أن فتح الباب واطل وجه أبي، بقيت في مكاني كتمثال محنط، أحسست بالرعب لنظرة عينيه المليئة بالغضب، أبعدني جانباً واتجه نحو المطبخ فتح فيه باباً موازياً للنافذة بعد أن نظر خلفها وتأكد من خلو المكان، ولأول مرة

أعرف أن في بيتنا ذخيرة وأراه ينقلها هو وحسن إلى كروم الزيتون ليدفنوها هناك.

شيء ما ينفجر في رأسي وأحس الليل يتحدى الدروب والأبدية، اتحسس أصابع يدي على جبهتي وكأنها نار متقده وأمسك القلم لأرسم رجلاً مشوهاً يطفئ في داخلي عذوبة الدفء وحنين الليالي الرمادية وأسلم نفسي للنوم.

استعيد صورة وجهه في ذاكرتي .. تعاودني نوبة إحساس ملئ بالذعر تشوبها ظلال اشمئزاز، تمتزج رائحته برائحة دم بشري حار تفوح منه، نظراته الشرسة توحي لي بأني أثير الشفقة وكلما انهال علي ضرباً أحسست بذنبي لأني قتلت البحر .. وإني استحق هذا.

* * *

يوم تزوجته لم أكن مختارة .. كنت الوحيدة التي نجت من عرس الدم الذي دمر كل شيء أخذ الأهل والأصدقاء .. بيوتنا وكروم الزيتون والعشب الأخضر

الذي امتد سابحاً في الأرض تشده خيوط الألم الفولاذية إلى الابتعاد والتمدد، لم يبقَ غيري بعد أن أحرق اليهود تلك البيوت بما فيها، كنت أجلس وحيدة قريبة من الساقية خلف بستان جارنا عندما أحسست بهم يقتربون، انتابني خوف شرس لم يستمر إلا دقائق دوى بعدها الانفجار فأدركت أني أصبحت بلا جذور، مرمية على شاطئ الوهم والعدم أبحث عن الآمان وأني غيمة عقيمة ملقاة في العراء .

تقترب مني خطوات .. أنصت قليلاً لأراه .. أبو أحمد جارنا الذي غادر الأرض لأيام في مهمة عمل وترك كل شيء .. توقف قربي .. لم أكن أبكي .. كنت صامته وكان صمتي يفجر ذعره وخوفه ويأسه، تكلم كثيراً عن الأرض والأهل عن الشهداء والوطن، وأنا صامته لا أعي مايقول، وعندما يئس من صمتي وجمودي سحبني من يدي متسللاً خارج المكان متنقلين في العراء كي نصل إلى أرض تحمينا.

في عتمة الدروب كان يقف .. إلى أين أنتم ذاهبون، برعب خاشع نظرت إلى وجهه والضوء ينسكب فوقه ليظهر جرحاً في وجهه مغروساً بالحقد أجابه أبو أحمد .. إلى قرية أخرى .. كان صوت عواد المفاجئ قد أرعبنا وهزم البقية الباقية من الشجاعة في نفوسنا قال عواد .. سأوصلكم إلى بيتي وفي الصباح أوصلكم إلى المكان الذي تريدونه.

ركبنا السيارة ونحن صامتين كنت المح شبح الرعب يطل من عيني أبي أحمد لأنه يعرف وتعرف أهل القرية كلها أن عواد يتعاون مع الإسرائيليين ويخدعنا كانت سيارته هذه ملك لأبيه الشهم الذي يوصل الفدائيين متحملاً المخاطر في سبيل ذلك مضحياً بروحه، لكن اليهود لم يخفَ عليهم ذلك طويلاً أخذوه من بيته وفقؤوا له عيناً وتجولوا به في أرجاء القرية كي نراه، يومها رأيت أبي يبكي بلا دموع وبقية من رجوله يجرجرها وراءه خوفاً من السقوط أمام جبروت أبي عواد.

لكنهم قتلوه بعد قليل وأصبحت السيارة لعواد الذي تفاهم معهم بسرعة فنبذه أهل القرية كلها ..

كان يتكلم .. ويتكلم .. والليل يوغل في دروبه الضيقه، وكنا صامتين

* * *

عجلات السيارة تئن ذعراً وهي تقف أمام المنزل، ترجلناودخلناه.

ينظر إلى وجودي مستجدياً دمعه ونحن نحتسي الشاي .. وأنا صامتة .. وعواد ماكف عن الكلام وعن المخاطر .. وعن اليهود .. وعن الشجاعة، وكنت لا أعي شيئاً وكأني مقتولة في الفرا غ.

في الصباح استيقظ الرجلان باكراً ليرحلا .. أما أنا فلم أعرف للنوم طعماً .. قبل أن يخرجا قال عوّاد.. سنعود في المساء لاتقفي عند النافذة .. ولا تفتحي لأحد ورمقني بنظره وكأنها أسلاك شائكة انغرست حول عنقي .. وغادر المكان ووقفت أمام النافذة أرقبهم وكنت أعلم يقيناً أن أبا أحمد لن يعود.

وحل المساء ضيفاً ثقيلاً يحتل كياني وألمي .. عندما أطل وجه عواد، ودمعه تنتحب وحيده حقود على خده؟؟ لم انظر إليه ولم أسأله .. امسكني فجأة بعنف بقسوة .. وكأن افعى سامة قد أمسكت به وقال : تكلمي .. تحركي .. قولي أي شيء .. أبو أحمد لن يعود .. لقد قتله اليهود .. واحتفظت بصمتي وكانت الأنهار في داخلي تبحر بعيداً وبلا عودة .. صفعني بقوة .. وخرج ولم يعد إلا في مساء اليوم التالي، فتح الباب وقال : لا أستطيع أن ابقيك في منزلي هكذا دون زواج، غداً سيحضر المختار ومعه شاهدان لاتمام مراسيم الزواج وصفق الباب خلفه وخرج، وخلفني لصمتي الوحيد الذي ورثته بعد وفاة أهلي على قارعة الطريق.

أيها الإنسان الغريب الذي يقودني في دروب ضيقة مسدودة .. لوحدتي لقلقي .. هاقد أصبحت ملكاً لك، يومها ولأول مرة أراه يضحك .. يشرق بذاك الوميض الأسود ليحتل وجهه، ويبسط يده بالطعام لكل من جاء وكان هذا اليوم الوحيد. بعدها لم يشرق ابداً

بابتسامة، كان يغتال ضعفي بقسوته وضربه وركله .. وكنت أغتال أحلامه ورجولته وصخبه بصمتي وشرودي.

ومرت الشهور كنت أنتظر فيها طفلنا بلا حماس وبذات الشرود وكانت الهوة بيننا تتسع أكثر لتغطي أراضي غزة وكرومها واللحن الفجري يغرق في كهوف سحيقة.

وعندما فاجأني المخاض لم أشعر بالألم كنت أبصقه بلا مبالاة وكأني أبصقه للأرض .. له .. للريح.. ولغابات الليل البهيم في أعماقي.

وعندما وقع عليه نظري لم أشعر بانتمائي إليه ولم أشفق لبكائه وصرخاته التي زرعها في الليل .. وعندما أدركت أنه مشوه لم أحزن ولم أبك وظل صمتي مسوراً بالهزيمة كأفعى فقدت سُمها.

تنبهت لنفسي وأنا في الطريق أحمله بين ذراعي، والخريف يتساقط ألماً لحظتها أحسست أن الكلام سيخرج من حلقي سكيناً تجرح، وإني اريد لصمتي أن ينجب غضباً أن يتفجر ألماً.

استفاق ذهولي على صوت الطفل والخريف يتساقط ألماً، نظرت إلى وجهه فغاصت ملامحه وحلت مكانها نظرة عوّاد يبتسم في شراسة، أمسكته بكل العنف الذي مات في أصابعي وقد اتقد ناراً تشتعل وقذفته في الهواء ليسقط على الأرض وكأني أنزع من نفسي كل ألمي وحقدي ومأساتي، نظرت إلى الأرض فوجدت طفلي اشلاء منثورة في المكان غارقاً في دمه.. وملايين الأعين قد خرجت منه تنظر في وجهي بحقد أحمق، أسرعت بخطا واثقة وكأني أعي نفسي للمرة الأولى إلى البيت، أخذت سكيناً كبيرة وخرجت بها إلى حيث عوّاد، اقتربت من تلك الزريبة فوجدته يتوازع الحديث والشاي مع رفاقه وبسرعة الجنون المترسب في أعماقي فاجأته بطعناتي المتتالية في رقبته وكتفه ورأسه وسط دهشة الناس وذهولهم، وعندما تفجر الدم أمامي كثيفاً مرعباً، كانت نظرات الحقد والاحتقار تتوارى في أعماقي وتصغر ..

ادرت ظهري له ومشيت في الطريق لا ألوي على شيء.

الصعود إلى الأعماق

لم أعد أسمع مايقال .. فقط كنت أهوي إلى منحدر الماضي في أعماقي وأغوص في لجة الخوف المسكون بي وأشعر كم أنا وحيدة ..

اتوجع وأئن .. وأنصت لصوتي خارجاً من أحشائي وكأنه خارج من زمن ما، مضت عليه قرون، له مذاق حاد الألم .. ألم يفترسني بقسوة .. ويغرز في شرياني خنجراً .. ترى من يشعر بألمي .. ومن يبالي بهذه الموجة المسكونة بي التي تسرق ذاتي عن ذاتي وتخلفني وحيدة مرمية على شاطئ الوهم ابحث عن الأمان.

لحظتها أحسست بالحاجة إليه، وبخياله يهاجمني بلا رحمة .. كم هو أيضاً وحيد مثلي وكم أننا معاً جائعان للحنان.

ها أنا ثانية أسقط في فخ الوهم وأنا أحاول الاتصال به، سأخرج من ذاتي إليه حيث الليل في أعماقه فجر بلا شفق .. والشتاء في عينيه مواقد دفء تمنحني بريقاً وحريقاً آسرين.

لكن هاتفه لايرد هو الآخر ضاع عبر أسلاكه في موجة أنين متوحشة، صنع شرنقته بنفسه واحكم إغلاقها عليه وسقط في هاوية الوحدة كأي شريد. لكني والحزن يصعق قلبي لابد أن آراه .. قبل أن تقتلني أوهامي .. قبل أن أرحل إلى داخلي مرة اخرى وبعدها لن أعود ..

على طاولة المشرحة كانت هناك .. فتاة في عمر الورود .. لم أكن طالبة طب كي يحق لي الدخول، دخلت معهم كي أرسمها .. كي أحمل موتها في ذاكرة أوراقي كالوشم حياً .. أريد أن ارسم خطوط

الألم وشبح الرعب في عينيها بلحظة منسية يتوارى الوجود بعدها فتستحيل ذكرى .. .

* * *

على باب الكلية كنا نتسامر .. أنا وأبي .. كان عميداً لكلية الطب .. رجوته أن يأخذني إلى المشرحة، فرفض أن أرسم الموت مجدولاً بالرهبة بلحظة سرمدية .. رجوته أكثر .. أريد لوحاتي أكثر حيوية .. أكثر حياة .. وأصرًّ على الرفض .. وكبر إصراري وعنادي كنت متمردة حتى قبل أن أولد .. وعندما فاجأتني الدنيا بصخبها لحظة ولادتي .. ارعبتها بعنادي وقدمت أمي قرباناً لوجودي ومنحتها للموت لاواجه قدري وحيدة .. وكان أبي يعلم هذا جيداً.

واختلفنا أياماً لم يرض لي أن امارس تجربتي هذه. كانت ترعبه أفكاري وجرأتي يخاف أن يعبث بي الفضول أكثر فأشدوا بعينيه لحن الخوف مجبولاً بالتهور والانزلاق .. .

لكني فعلت .. لم أنتظر وقتاً أكثر .. ابقى خلاله تحت رحمته .. تسللت خلف الطلبة، وهم يدخلون برداء أبيض أخذته من صديقة لي وبثقة الطالب المجد أدخل المشرحة وكأني قد اعتدت دخولها .. .

* * *

على الطاولة كانت هناك، تسمرت للحظات لا أستطيع أن أنظر إليها خوفاً ورهبة ... وعندما تجلدت ونظرت إلى وجهها .. كان وجهي مرسوماً فوق موتها ينتظرني .. رفعت يدي إلى وجهي أتحسسه كان بارداً لاروح فيه، أجلت نظري بالفتاة فوجدت ابتسامة وجهي مرسومة في ملامحها .. كانت تنظر إلى بعينين ملؤهما الاشفاق .. .

لم أعد اسمع مايقال .. تسمرت أمامها تماماً كتمثال محنط وركزت عينيَّ في عينيها، كانت أنا الأخرى وكأني خلعت جسدي وألبستها إياه .. وأنا اقف في العراء كطيف ضبابي .. لم تكتفِ بهذا بل نادتني بين الجموع قائلة لي .. أين أنت؟.. ووجدت

نفسي أجيبها بصدق مطلق فرضته علي الهالة من الرهبة التي أشعرها .. وأجبت لاأدري .. ابتسمت متخابثة وقالت : اتعرفينني .. كدت اسقط في الفخ وأقول لها .. أنت، أنا، لكني جبنت .. ورفعت لها رأسي مؤكدة عدم فهمي لسؤالها فتطاولت علي وقالت : أنا أنت أعيش داخل أعماقك أنا أنت التي تغادر الآن وعندما سألتها لماذا أجابت : رغم عنادك أنت القلق والترقب والانتظار، أما أنا فغيمة ماطرة .. وقطار لايملك محطات؟.

شيء ما، كالليل أطبق على صدري وعداني بكآبة قاسية .. وخوف سورني بالقلق والضيق أزحته جانباً وغادرت المكان.

* * *

سماعة الهاتف تهتز في يدي وانت تضحك فرحاً باعتذاري .. وأنا ألعق بقية من دموعي مع خوفي وحزني ابتلعهما بهدوء وأرقب الثواني تتسلل عبر ليلي الطويل قطرة .. قطرة .. .

السيارة تركض وعجلاتها تئن ذعراً وهديراً ..
وأنت تحملني في سيارتك الصغيرة لرحلة في مجاهل الليل بعيداً عن الأعين التي ترقبنا بعيداً عن همس طفلك وعيون زوجتك.

يوم التقينا لأول مرة .. كنت في زيارة قصيرة لمكتب صديقتي .. وكنت في زيارة لها.

في المصعد التقينا معاً .. ورمقتني بذاك البريق الغريب الذي مسح الحزن عن أهدابي وبددها .. .

وعندما وصلنا إلى الطابق الثالث، سألت الرجل الجالس قرب الباب .. الأنسة لمياء أين غرفتها؟ .. أجبتني أنت «مدام» لمياء في الغرفة الثانية على اليمين، إنها زوجتي وكان هدير صوتك هو اغنيتي الحالمة التي انتظرتها منذ سنين.

غجرية بلا مرفأ .. أتقوقع في حبة رمل .. وأصلب على قدمي ناسك .. أجوس شوارع الصمت وانظر بعينيك إن تشرق شمس تغسلني من أحزاني وتشردي.. من ضياعي، ودخلنا سوياً لم نجدها ..

وجلسنا نحتسي الشاي ونتكلم .. كنت تنسكب في أعماقي قطرة قطرة .. وكنت ألعق حروفك من شفتيك قبل أن تخرج الكلمات منها وطال غيابها .. وكنا سعيدين وخرجنا معاً من ذلك المكان وكأننا ولدنا من جديد.

* * *

على الرصيف كانت تقف سيارتك الصغيرة .. دعوتني كي توصلني إلى البيت .. وقبلت شاكرة .. اجلستني قربك وفتحت لي الباب وسألتني عن نفسي .. وأحلامي .. وعمن أكون.

وعندما شارفنا على الوصول سألتني أن أمنحك قليلاً من الوقت لأفكر فيك، ومنحتك بعدها لحظاتي القادمة أصبها في دفء عينيك مغزولة بخيوط الشمس.

وتكرر اللقاء .... .

في الطريق كان القمر يلاحق ظلنا .. وكنت ألاحقه بعينين مفتوحتين .. كنت تتكلم وأنا صامته حدثتني عن

لمياء ، وكيف تعرفت عليها .. وعن باسم طفلك الوحيد.. ولم أقل شيئاً، كانت صورة أمي ماتزال تحاصر جدران ذاكرتي كطابع ملصق، وكانت اشياء طفلك الصغيرة التي نسيها في السيارة تقف بيني وبينك .. . ومع غروب الليل توقفنا .. سألتك ماذا أرسم .. أجبتني امنحيني الخلود بلوحة كي لاتنسيني .. ليبقى دفء عيوني يسور لوحاتك لأبقى شاهداً في خطوط يديك.

وكانت الفجرية المتمردة في أعماقي تجهض بصمت صورة أمي كما تركتها معلقة في (صالون) البيت.

* * *

نزلت من السيارة ومشيت فوق الرمال ولأول مرة أتمنى لو أدفن تحتها، كانت تنزلق تحت أقدامي بخفة وتواضع .. وكنت ادوسها بجبروت امرأة أدمى الحب قلبها .. وخلفها للنسيان، كنت أتمنى أن أصرخ في وجهك .. أن أصارح لمياء وأعلن لها تلك الحقيقة .. لا أستطيع الهروب إلى الأعماق بخوف موهوم نضعه يضعفنا.

أخذتَ أدوات الرسم ووضعتها أمامي .. وأحطتني من خصري وقلت : انظري إلى القمر .. يدك الحانية تلامس ظهري برفق .. تشعل النار في ثيابي، نظرت إليك وقلت :

- هل تتزوجني .. وميض غريب لمع في عينيك فجأة وقلت : أنت ترعبينني بأفكارك.

- هل يرعبك وجودي في حياتك.

- لاحياة لي وأنت بعيدة .. .

أمسكت فرشاتي وبدأت أرسم .. وبدوت لي مصلوباً كعمود النور على جدار من طين.

كانت صورة أمي ماتزال تعصف في كياني .. وملامحها ترتسم فوق أصابعي وأمام عيوني وتحتل كل الفضاء .. وكنت واقفاً تنتظر لوحة خلودك .. .

مع الفجر كنت قد انتهيت من اللوحة وأنت ماتزال مصلوباً كعمود من نور .. ازحت لك جانباً كي أفسح لك مكاناً لرؤيتها .. نظرت إليها بدهشة اتسعت أكثر وأكثر .. وبريق أحمق لمع في عينيك فجأة وبكل القوة

الكامنة في قبضتك أمسكت باللوحة وبدأت بتمزيقها مزقت في ثورة جنون كل ماباللوحة إلا عين واحدة سلمت من يدك لتنظر إلينا باشفاق.

لماذا أمك !! انت لاتعرفينها .. وبكت الفجرية في أعماقي بألم أحمق ...

كيف لا أعرفها .. إنني أقلدها في كل شيء .. حتى في حبي لك .. صورة أنا منها .. يوم أحببتك كانت معي في أعماقي وشاركتني أول لقاء .. وأول قبلة .. كنت اشبهها في كل شيء ... في قامتها الطويلة ونظرة الحزن الدافئة التي تطل من عينيها .. في ثقتها ودلالها .. وفي عنادها أيضاً ...

يوم أحبت أبي كان له طفل يلهو أخذته من طفله ورمت به لأمه التي أخذته ورحلت عن المدينة، ولم يعرف أحد عنها بعد ذلك شيئاً .. وكبرت أنا وكان أبي يتمنى لو جئت طفلاً.. وفي لحظات سمره كان يقول .. لك أخ قد يكون شبيهاً لك .. وأعمد بعدها أن أكون كالصبيان كي أشده من حلمه الذي كان.

لكنه أحب أمي وكانت صورتها عزاءه في ليالي الوحدة والألم .. أحبها وكان الحب يفضح عينيه عندما يذكر اسمها .. ولما رحلت حملنّي اسمها كي يردده دائماً ولا ينساه .. أحبها كما أحببتك ياعصام لكنك رفضت أن تحبها معي .. رفضت .. واسلمت ملامحها وتقاطيع وجهها للريح في ذلك الفجر الرمادي .. .

* * *

رنين الهاتف يقطع الصمت في غرفتي .. يقطع غربتي ووحدتي .. يذكرني بالجدران التي تحميني، تأتي الخادم لتقول : عصام على الخط - لاشك أنه سيعتذر عن تمزيق صورتها .. لن أدعه يعتذر .. اليوم عندما كنت في المشرحة أدركت كل شيء .. لاتعتذر ياعصام كانت ستسقط من داخلي حتماً لأكون أنا .. عصام سأكون وحيدة إلا من نفسي وخلودي الصورة لم تخلدها ولن تخلدني.

اتجهت إلى الهاتف أمسكت بالسماعة .. كان على الطرف الآخر من الخط .. جاءني صوته هادئاً

لطيفاً معتذراً .. تكلم كثيراً اعتذر عن فني الذي أسلمه للعدم وعن ألواني وخطوطي .. وكنت صامتة .. وكأن الأمر لايعنيني .. عصام ذاك الذي اشعل أعماقي لهيباً لايعنيني .. صوته كسكين حادة تنغرس في حلقي .. ملامحه عيناه تبتعدان في ضبابية وتستسلمان للريح...

سألني أين أنت؟ .. قلت معك .. قال ماذا بك؟ .. في هذه المرة كنت تلك الغجرية الكامنة في أعماقي أحدق في السماعة وأصرخ عالياً .. عصام لم تعد بعد اليوم سنابل شمس تنسكب في عروقي، لم تعد في قلبي مرفأ بلا حدود .. لم تعد شيئاً لاشيء أبداً. اطبقت سماعة الهاتف .. وذهبت إلى غرفتي أتسور بجدرانها خوف السقوط في هاوية ما .. لاأريد سوى الصدى أسمعه طويلاً في أعماقي كي أعرف الطريق...

الخيط الرفيع

عند الفجر .. تخضبت قدماي بلون الفرح .. وصعد الرذاز ليغطي وجهي وشعري وأنا أركض هاربة من نفسي ابحث عنك يقيني .. أملي الكبير.

وبابتسامة هادئة قبّلت ينابيع الخوف في أعماقي وسألني مابك؟.

لم أعرف لحظتها مايدور .. كنتَ الوجه الهارب من أعماقي الذي جعلني أركض وراءه طويلاً ولا أستكين ..

شارة استفهام شاردة على سلم الأبجدية .. عبق زهر الليمون .. وكنتَ أيضاً نجمة هاربة من كهارب

الأفق .. من الأمس .. واليوم .. حتى من نفسك ومن الأنين.

فكيف سيكون لقاء الهاربين أنت وأنا .. ومدانا أفق شاسع يلفظنا عبر عيون جراحاته ولا يستكين.

عند الفجر .. هذا الفجر .. جئتك لأقص عليك أخباري .. لأرسم لك أحلامي وآلامي .. ووجدتك كما تركتك في الأمس .. تجلس خلف لوحتك تريد اتمامها.

إنها اللوحة التي تحمل رقماً بدأ يكبر حتى لم أعد أعيه .. وهي لذات المرأة .. اللغز .. اللحن الحائر في سماء غربتك .. صوت نقاء أعماقك، ماتزال كل يوم ترسمها عبر شفق الأرض وتلونها بلون عينيك.

واليوم جئتك لاهثة عارية القدمين لأخبرك ياصديقي كيف وجدتها .أجل لقد وجدت امرأة الحلم التي عاشت داخل أسوار لوحاتك، وسأروي لك كيف.

عند شاطئ البحر كنت أسير تائهة شريدة كبحار أضاع مرساته .. تركت قدميَّ تتوغلان في الرمال وتركت عينيَّ تبحثان في الفضاء الممتد أمامي عن

اللاشيء .. فجأة تنبهت لوجودها .. فتاة سمراء ممشوقة القامة خرجت من المياه لتنتصب أمامي نظرت إليها بدهشة اتسعت لها أحداق عيوني وأنا أراها قادمة من الفضاء من المجهول لكن ذهولي أكبر عندما عرفت فيها حبيبتك المجهولة التي تحتضنها لوحاتك كل يوم لكنها تغادر مكانها في الليل، تفتح الباب وتتسلل خلسة من جدران بيتك وتبقى وحيداً.

- من قال لك اني وحيد.

نظرت إليك بدهشة .. ولم أقل شيئاً.

* * *

تائهة منذ الأزل .. أبحث عن مرفئي .. أحمل شراعي الممزق وعبثاً أدور به في بحر الضياع، أبحث عن شط عن أمان.

في السيارة كنا معاً برحلة بحرية سألتك.

من أنت ؟؟ .. أجبتني، كوكب بلا مدار، وكان همس صوتك يحتضن طفولتي، زمني وحروفك تخرج

من شفتيك لتلتحم بدفء مع عينيَّ تتوغل في أعماقي وتنام.

سألتك من أنا .. أجبت دون أن تنظر إلي، طفلة تكمن في أعماقها امرأة قوية، امرأة الحلم، فأرجو أن تكونيها .. .

كان البحر صاخب الأمواج والرذاذ يتكسر بقسوة على الشط ويدميه، وكانت المرأة في أعماقي تكسر القيد وطفولتي كي تقول لك أنا امرأة الحلم أنا امرأة الزمان.

لكنك لم تستطع أن تعي كلماتي كانت طفولتي هي الجسر الممتد بيننا والأفق البعيد بين نجمتين كلٍّ في مدار، وبرعونة الطفلة في أعماقي قلت لك توقف، وبكل الهدوء الذي احتواه عمرك توقفت.

مابك ياصغيرتي؟ .. وأنت لاتعلم أن طفولتي هي الجسر الذي لم استطع أن أجرحه لأكون لك قلت لك ستسقط يوماً في قاع جرحي وستعرف عندها أنا التقينا .. .

نزلت من السيارة ومشيت فوق الرمال تاركة زويعة الدخان وكلماتي تلفانك وانت ماتزال في سيارتك وزوبعة الحقد تغلي في عروقي على عمري على طفولتي وعليك.

بعد قليل دعوتني كي توصلني إلى البيت .. جلست قربك .. وتركت نظراتي تتسلل برفق توغل عمقاً في تكوينك .. .

كل مافيك ينطق برجولة متحدية أسرة .. كل مافيك يصرخ بي ويدعوني لوليمة محرمه .. حتى يداك والطريقة التي تمسك بها عجلة القيادة بقسوة .. بشدة.. كانت تذهلني .. وتترك في نفسي سؤالاً حائراً .. ترى كيف لمثلك أن يقبّل أمرأة ! ..

عندما شارفنا على الوصول استدرت إليك قائلة وبكل جرأة .. .

هل تقبل دعوتي مساء الخميس على حفل راقص.. ستقبل طبعاً .. إلى اللقاء .. .

اطبقت باب عالمك .. باب سيارتك .. ودخلت عالمي لاطبق جدراني عليه .. أتسور بالصمت وخيالك يعربد في أعماقي وسؤال حائر على شفتي .. ترى كيف ستراقص طفولتي بعيداً عن ضجيجهن، تذكرت عندها صديقتك هدى، تلك الفتاة اللعوب التي كانت تريدك لها بامتلاك . . .

ويوم أصرت أن ترسمها بدل فتاة اللوحة، امسكت بالفرشاة وبدأت تلطخ اللوحة بألوان خرافية شكلها غريب وكأنها التنين .. يومها نظرتْ إليك بحقد أحمق وصفقت الباب وراءها ورحلت باكية، سألتك ما الذي أبكاها أجبت .. رفضت أن تصدق حقيقتها .. إنها لاتريد أن أراها من الأعماق .. إنها إيقاع عالي الضجيج.

* * *

كنت أعرف يقيناً أنك الحلم .. أنك الفارس الآتي من المجهول.

كنت مرات كثيرة ألتقي بهن في بهو أحزانك .. في شرفة وجدانك .. لكنك أبداً مامررت بهن إلا مرور

العابرين .. وكان كبريائي وغروري يسعدان بك، لكني اليوم حائرة خائفة، فأنا من دعوتك لتلك الوليمة .. اتراك ستكتفي بطفولتي، وتترك أمنياتك ورجولتك بعيداً عنهن .. لست أدري !

وجاء المساء الموعود .. مساء الحلم الوردي وأنا أنتظرك .. لن أبدو اليوم طفلة معك، سأبدو كالكبار .. أخذت أدوات الزينة وبدأت أعبث بوجهي وامتدت يدي إلى شعري لاطلق ضفائره من اعتقال قد طال وأرسله على كتفي كشلال حرير، نظرت إلى المرآة .. أحسستها تدور مستسلمة في خدر جمالي مزهرة بي، تريد أن تترك مكانها كي تلاحق ظلي، وكنت تائهة الفرح ادرك حتماً أني أبدوا أكبر سناً مما أنا.

دقائق .. وسمعت هدير سيارتك الحمراء وصوت زمورك الذي لاتخطئه أذني، ركضت مسرعة إلى البوابة الكبيرة لبيتنا .. دون أن أشعر أني ارتطمت بشيء ما في طريقي إليك أوقعته أرضاً وترك صوت سقوطه دوياً كبيراً على الأرض، لكني لم أعبأ بشيء

كنت لاهية عن كل ماحولي، أريد أن أصل إليك، كي أراك .. كي أدهشك بجمالي .. .

لكنك قتلت فرحتي البكر .. قتلت زمني وطفولتي، إذ نظرت إلي بدهشة اتسعت لها عيناك الجميلتان وبدأت تضحك، كنت تضحك وكأن مساً من الجنون قد ألمّ بك، لم أدرِ ساعتها ماسأفعل تواريت هاربة من نفسي ومنك أبكي على جرحك الذي جرحتني إياه .. أبكي ضياع الأحلام .. لكنك وبذات الهدوء أتيت خلفي لتقول، اغسلي عن وجهك الأصباغ وتعالي، وبدأ حقدي عليك يكبر ورغم هذا أصررت على الذهاب إلى حفلتنا الراقصة.

في الحفل ومع اصطخاب الأصوات والموسيقى كنت بصمت تهمس في أعماقي بحس غريب وكنت أسمعه .. لكنك لم تقل شيئاً .. فقد كان نداء روحك الداخلي يتجاوب مع مسمعي وأراه بوضوح.

وضاق الحفل بمن فيه فقلت لك، هيا بنا.

مشينا معاً .. والليل بدأ ينام في حضن المغيب، ونحن صامتان، بعد قليل سألتك .. أتحبها .. نظرت إليّ دهشاً وقلت : ياصغيرتي : من أحب؟.

اسمي هويدا لاتناديني بيا صغيرتي، كان صوتي حاقداً غاضباً لكني ابتلعت مافيه وقلت فتاة اللوحة أتحبها .. عدت ثانية لضحكاتك المحمومة التي يتعالى صداها في أرجاء الفضاء فتغدو لهيباً. أجبتني بعد أن هدأت نوبات الضحك الهيستيرية في أعماقك .. الحب نعمة الله في الأرض، نداء روحي عالي الإيقاع والضجيج نغمة في سماء حياتي، لكنه ليس النغم الأوحد، أحب آلاف الأشياء. فلماذا تعتقدين أني لا أستطيع أن أحب إلا فتاة اللوحة.

أجبتني بصدق وقد لمحت لحظتها بكاء عينيك واردفت قائلاً : لأنها من استطاعت أن تملي عالمي، كانت حبي الأول .. ويوم رحلت بحثت عن الحب كثيراً ولم أجده، أحب أية امرأة تعطيني الأمان والحنان ترى

جراحي فتضمدها بدموعها .. ببسمة حائرة تتراقص على شفتيها، دون أمتلاك ..

- وأنا .. .

- أنت طفلة اليوم .. وربما ستجدين غداً من يحتضن حبك ويعزفه صوتاً قوياً في ملكوته ويتركه يتربع على عرش أيامه، لكني أنا لا أستطيع أن أقبل حباً واهماً قد تجدين بي فارسك الآتي لكني لست كذلك، قاطعتك متسائلة .. امنحني الحب اليوم . وانساني غداً.

لا أستطيع .. أجبت لا أستطيع، كل ما أملكه هو إيماني بما أريد أنا لا أزيف ولا أكذب.

لي طفلة في عمرك .. أما أنت فمذ وعت عيناك هذا الكون ولامست الشمس منابت الحب في قلبك بحثت عن أب يشبع الحب في أعماقك فلم تجديه .. استصرخت الحب في قلوب الأخرين واعتصرت معه الألم حفرت نداءك في قلب الصخور وحصدت اللاشيء .. ياصغيرتي لاتتعجلي خطاك في درب

الهوى فإنه آت، هو زائر لايطرق بابنا عندما نريد، بل عندما يحب .. سيأتيك يوماً دافئاً حاملاً معه ماتراكم في قلبك من حنين له عندها سيكون هو الحبيب والأب سيكون المصير .. .

لحظتها اقتربت منك .. ورجوتني صادقاً .. لاتقتربي.

لكني اقتربت .. أحسست أني أمتزج بك وأن صوت أعماقك يخرج من حنجرتي، وأني أتنفس الهواء من رئتيك .. وكأني ولدت من جديد، أدركت لحظتها عطفك الأبوي، ووقفت أمامك عارية إلا من صدقي كعاشق أمام محراب إلهي .. بدأت أعيك وربما للمرة الأولى وأسمع صوتك يهمس الحزن تتنفسه رئتاك لتحدثني.

يومها أحسست أن هنالك خيطاً من الأعماق يمتد بيننا لاينقطع أبداً، لم أحبك بعدها حبي لفارس مجهول، بل غدوت حنيني لحب جائع طفولي حرمتني منه الأيام.

ويوم شاهدت تلك الغادة السمراء على شط الرمال ركضت لاهثة إليك عساها تكون هي من انتظرت أما أنا طفلة اليوم فسأكون في الغد امرأة أخرى، تعي صدق كلماتك التي زرعتها تحت جلدي وتكون درب خلاصي، وأمنياتي، وستقف في وجهي أن حاولت يوماً الإفلات من أسرها إلى عالم حب ضائع إلى المجهول، كلماتك ياصديقي ستنصب في وجهي إن أنا حاولت العبث أو حاولت الهروب.

هي .. والشيطان

سأكتب للريح والمطر .. سأنثر كلماتي في رماد الجو الحزين .. سأغسل أحرفي بذرات الندى المتساقطة .. وسأحرق كل الرياحين .. فقصتي لاتروي أحرفها تمتد عمقاً في جذور الليل الحزين .. وتوغل شراسة ونزفاً في دياجير الليل الهشيم .. الآن .. والليل يلملم عن الكون ظلمته ليرحل، ويطل وجه الأرض .. انتحب بصمت .. يا لهذا الكون الأحمق !! فلديه دائماً أوجه مختلفة. الآن .. وأنا أرى خيوط الفجر الأولى تبدو في الأفق شاحبة هزيلة أنظر إلى المساحة الممتدة على طول أفقي .. طول جرحي وأعجب كيف يولد الشر وكيف ينأى الطهر عن وجه الأرض .. وكيف نرى ولا نرى .. .

لا أهذي بكلامي هذا .. ولا أرشو اعماقي كي تهدأ .. ففي القلب نبض حزين وفي المفاصل ألم موجع، ومع هذا اتقلب فوق خنجري في رقصة موت تتفجر غضباً وأروي قصتي .. .

قالت لي والفرح يعربد في أعماقها .. سأذهب الآن مارأيك في شكلي ونظرت إليها طويلاً .. كاملة الفتنة والغواية، في جمالها سحر الشرق وفي عينيها ترقد آلهة الاغريق بتحدٍ حي، قامتها كسيف يماني يشتعل بريقاً فاتنة هي حقاً ولم أملك إلا أن أقول لها .. جميلة .. رائعة .. وتنظر إلى المرآة لتؤكد هذا فهي على موعد معه .. وموعدها مع الحبيب يقترب فما هي إلا ثوان ويعلن عن حضوره .. لاجديد في الأمر .. ولكن .. من تنتظره .. من تتجمل من أجله .. هو حبيبي .. هو من انتظرته طويلاً بألم حواء جميعاً وعشق ايزيس .. أحببته .. أجل .. وكم من الليالي مرت وأنا أرقب ظلمة الليل وأحصي النجوم وتبزغ خيوط الفجر فتراني متلبسة .. أحدق في الأفق وأستلهم من الكون أناشيد الغزل .. أحببته حقاً وكأنه

رجل الأسطورة توغّل في عمق نفسي وتغلغل في يقيني ووجداني .. ستذهب إليه الآن وأنا وحيدة في كف الوحشة المرّة .. ستذهب إليه الآن وقبل أن أقول كيف سأحدثكم قليلاً عني .. أنا التي ذُبحت مراراً .. وها أنا أمشي فوق اشلائي أوأرخي موتي وأكتب نعوي على أوراقي ... وسأتحدث عني قليلاً كي أقول كيف ذهبت إليه .. إلى حبيبي .. إلى النيزك الغجري الذي تشرد على طول المسافة المزروعة في عيوني .. واستوطن في كل ذراتي .. وامتدت جذوره موغلة في شراييني وأشرعتي .. سأحدثكم عني بعد أن غاب عني وجه القمر .. وامتدت الظلمة لتغطي أيامي .. ويسكنني القلق .. أنا الأنثى التي لاتعرف الدموع .. وحين تعصف بي رياح الغدر انسحب إلى كهفي كأي جريح يعلن عن صمته .. مارد عاصف أنا وموجة قلقة تحمل النزق والكبرياء .. وهي تعرفني .. .

لكني سأحدثكم عني ساعة فجيعتي به .. وكيف أصبح كالوجع يستولي على مسامي وكيف تطور

عاشقي من حبيب إلى مبضع وخنجر .. وبها ذلك الجزء الغالي من روحي .. ولحمي ..

يومها كنت مشتاقة .. أمشي على جمر الأشواق وأشعر بطعم الحريق .. تتآكلني اللحظات لرؤيته .. أهيم في بحر الجنون .. أبحث عنه .. وامتدت يدي إلى الهاتف أريد السؤال .. فلقد تأخر .. وشطآن الأشواق لاتتأخر .. أريد أن أزف إليه مزيداً من الحب .. من الوجد .. وأريد لها الوصول إلى حيث أريد عاجلاً .. .

وكانت الصفعة .. تلك الطلقات الأليمة التي تبعثرت في جسدي فشوهته .. تلك اللحظات التي تفتت الأشواق والأحلام تبعثرها ولا تبقي إلا الألم .. .

ففي تلك اللحظة وقبل أن يرن الهاتف سمعته .. أجل إنه هو فهذا الصوت الغافي في حضن المغيب وتلك الترنيمة التائهة في غابة الأرض .. أعرفها .. كيف لا .. وهي جزء من موسيقاي .. جزء من وجيب قلبي أسمعه كما أسمع صوت روحي في أعماقي صوت يقيني .. وكان في لحظته تلك يعلن موتي .. ويبارك حبه الجديد .. كان يقول لها، أحببتك منذ

زمن.. لكن وجودها - أي أنا - لم يتركني لحقيقتي .. لأخرجك من أعماقي لأزفك همسة روحي لشرياني وفجعت في نفسي .. أحسست بوحدتي ولم أقو على رد سماعة الهاتف إلى مكانها فلقد تجمد الزمن في عينيّ .. وحارت عبرة خانقة لم يقو الهدب على الأمساك بها وجاءتني الصفعة الثانية .. كانت على الطرف الآخر من الخط .. أختي .. وقبل أن أدرك مزيداً من هذا الجنون المتفجر أمامي - قبل أن أسأل نفسي ما الذي جمعهما معاً . . وقبل . . وقبل . . جاءني صوتها مزهواً بضحكته .. دافئاً بعبير الحب والسعادة .. أنا كذلك .. قال لها : هل لي أن أراك؟ .. أجابته بتغريد وإنشاد كما تشاء وكيفما تشاء .. وبخجل مصطنع قال : قد ترانا " - وأمسكت نفسها قليلاً عن الضحك من سذاجته .. من طفولته .. ثم قالت : لايهم فلا تستحق منا الوقوف .. حتى ولو عرفت فما نريده هو كذلك ..

عند هذا كف عقلي عن الدوران .. وكف قلبي عن الوجيب وامتلأت عيناي القويتان بدموع كثيرة ..

وأطبقت سماعة الهاتف وبشبه نحيب صرخت عالياً فلست أنا التي تدان بالحب .. لست أنا من تدار كؤوس الحديث عنها، كما تدار في الحانات على أرصفة باريس العتيقة .. وليس هو الحبيب الذي عرفت .. فأنا لم أكن يوماً مجرد كلمات .. وهي أختي .. كيف استطاعت أن تقتلني .. كيف استهانت بدمي لتهدره بهذه البساطة .. كان الجنون لحظتها هو سيدي وكان الدمع الأسود هو عزائي وصديقي .. وتراني في غرفتي أتحرك بعصبية ألف حول نفسي وشرر يتطاير من عينيّ .. ماذا أفعل ؟؟ ويأتيني النداء بعيداً بعيداً من أعمق أعماقي ويهتف .. كوني عاقلة .. وأنا لم أكن يوماً إلا العاقلة كل من عرفني يصفني بالعقل .. وأول من نادتني بها أمي .. تلك الرقيقة الشفافة التي أحبها والدي ذات يوم بعيد، وعاشا معاً قصة غرام طويلة كتبتها الأيام سطوراً غزلية وأطفالاً كنا ثمرة هذا الحب .. كنت كما كانت تتمنى حتى في طفولتي؛ كانت تتحدث عني بفرح حقيقي وتقول : هذه الطفلة تسيطر على مسامها وانفعالها كما لم أقو عليه

أنا .. وكانت لهذا تهمل أحياناً مطالبي وتدرك أني اتفهم انشغالها عني بأعبائها في البيت وبأخوتي .. لكني .. ولأني العاقلة .. حرمت من متعة الطفولة .. ومن طيش المراهقة .. ومن أحلام الشباب .. كنت العاقلة التي تعي المسؤولية وتقدر الأحكام .. وبعد صمودي أمام الزمن .. وتاريخ انكساراتي الماضية أحسست بعطشي للطيران كفراشة وتمزيق استار العقلنة .. والانطلاق في موكب الحب .. والغوص فيه.. بعدها جاء هذا الفارس الاسطوري ليشرخ زمني .. ويقلب الهندسات جميعاً والمفاهيم العميقة .. فجاء ربيعي بعد الشتاء وجاء البحر بلا أمواج .. وتدفق زمن الحلم من خارطة السماء .. وسكبت الليلك في كأسي.. وشربت من نخب الأنبياء ..

عندها أتاني الموت .. وكالموجع استولى على أنسجتي .. والموت كأس شربته من كفيها وهو داء .. وسكين .. وفناء .. لو لم تكن هي .. لوجاء الصوت الآخر يحمل صرخة أية أنثى لكان الموقف مختلفاً .. كنت سأزرعه ديداناً في حلق الزمن سأجرجره إلى

بقعة الضوء المغروسة في جمر أيامي .. وسأعلن عن فيض كبريائي وأدمر فيه اللا موقف .. وسأعلن عن موته فلا شيء فيه يستحق .. ومثاله كثير فليس أول عاشق مخادع .. وليس آخر رجال العطش والطين .. لكني الآن والدوار يلف بي مساحات الدنيا لا أدري ماسأفعل .. فأنثاه هي أختي وهي تعرف كم أهواه .. وكم انسكب حبه في أوردتي وتاه في شطآن شرياني تعرف حقاً كيف يكون الوجد يقظاً، والليل انغاماً والأفق حلماً وردياً وجنة عشناها .. يأخذني الدوار ورأسي يشتعل حريقاً وجمراً .. ماذا أقول لها، هو .. هو .. اذرّه رماداً على أرض النفاق التي عاشها .. أقتله في داخلي .. أغتال حروف اسمه التي ارتسمت على جدران صوتي .. أبعثر بقاياه التي استوطنت كالسفن راسية في عيوني .. هو .. وكما ماء النهر يتجدد .. ستتجدد في داخلي مشاعر أخرى متشابهة.. متواصلة كذرات الشلال المتساقطة من أفق السماء .. كتناثر الشظايا العشوائي في أرض المعركة وتكون لربيع آخر .. واسم آخر .. لكنها هي كيف استطاعت

أن تقتل في عيوني النظر .. وتسرق الفرح الآتي .. وتاريخ ذكرياتي كيف .. لابد أن أكون أنا القوية .. العاقلة .. يجب أن اتماسك ولا أدعها تعرف.

وعندما حل المساء .. وجاءني الحبيب كانت أختي ثالثنا .. ودارت كؤوس الحديث وديّة منسابة وكأن لاحوار بينهما ولا موت معلن .. وبكل شراسة الأدغال في أعماقي .. بكل انتصارات حواء في تاريخها العريق .. كنت أنا ..

لم يدركا أن وجهي غاب مع رياح الصقيع والمطر.. لم تدرك هي غياب وجهي ولم تلحظ غيابه في عيوني، ولم تر موت أنفاسه في صدري .. وهو لم يلحظ السكين المغروسة في صمتي، ولم ير أجزاءه المتساقطة عن أهدابي ونسياني وأدركت كم كنت متماسكة، وكم كنت منتصرة .. وكان لابد لي من الاستمرار في لعبة الموت وكانت تفجعني قدرتي على تكرار المأساة باستمرار ..

لست أنا من تدافع عن اللامكان أن لم يكن لها .. لست أنا .. وكانت لعبتي في تجاهلي لتلك العلاقة

الوليدة .. لهذه الولادة المجهضة، مع انصاتي لاتصالهما المتتالي .. كنت بقراري هذا أخونهما معاً.. أخون لحظات الوحدة في أعماقهما لكني لم أكن ملاكاً لم أكن ؟؟ ولا أحد يطالبني بأن أكون أكثر من هذا، وأدركت وقتها أن الشك وهو دمار للأنثى أقل بكثير مما انتابني وأنا أسمع حوارهما .. فلقد كنت مادة دسمة لحديث مهترئ مريض، وبكيت طويلاً ليس بضعف أنثى بل بجرح عمر .. ودمعي ظل يطفو فوق بحر ليلي بصمت، ولم أعد أحتمل .. كان هذا فوق طاقتي على الأحتمال ... وحملت أياماً طويلة موتي السري ومشيت به، لكنني قررت أن أعلمهما بمعرفتي ترى ماذا سيكون ؟؟ فلم أعد أقوى على صمت الشفاه في خلايا وجعي، ترى لو فاجأته بالحقيقة هل يشعر .. يعتذر .. هل يعلن لي عن انكساره أمامها .. لو حاول ذلك لما تركته يفعل، فأنا أدرت ظهري له كي لا أرى سقوطه أمامي .. كي لا أراها وهي تجرجره إلى حيث تريد، وهي لاشك قد تعتذر وتبكي خطيئتها بمرارة، وسأمحو من قلبي خطاياها، وأتمنى لو أن

جسر العذاب الذي مشيته أنا تعبر عليه دون خوف .. لكن ماحصل لم يكن كذلك .. واجهتهما بالحقيقة .. أعلنت عليهما تلك القصة .. أشهرت جرحي في وجههما كنت بهذا كمن يفجر قنبلة موقوته في قاع بحر عميق، ويعلن عن نهاية العالم، وما أن فجرت ينابيع جرحي .. ومزقت ستار اكذوبتهما الغافية وأدرت ظهري حتى تشابكت الأيدي والتقت العيون في انتصار رائع، عندها ابتدأ عالم الأنهيار ..

وصحوت على نفسي لألقاها تتفتت والتفت إليها لأجدها تطلق ضحكاتها السعيدة تملأ البيت وتهرع إلى المرآة لتزيد من حسنها فهذا موعدها معه .. لتقول له أخبارها الصغيرة، لتعيش معه تفاصيلها الجزئية، لتجرجره إلى عالم دهشتها كطفل تستهويه الألعاب النارية .. .

وأنا التي كان واحتي التي أدخلها في صلاة فاتحتها الحب .. وتسليمها الوفاء واحتي التي أدخل إليها عارية إلا من صدقي وحبي .. ابتعد فهذا ليس زمان الأديان.

وأعيش في كل يوم قصتي معه بكل ثانية من عمري الجريح .. وبعد هذا هل أروي قصتي أم أذرها رماداً وألقي بها إلى الفضاء .. .

سألملم ذكرياتي معه من زوايا القلب المتعب .. وسأكتم جرحي، وسأبعثر رمادي للبحر يمحوها مع موجه الأليم .. وصحوت على صوتها ثانية الذي جاءني بعيداً بعيداً لتقول لي كيف تريني الآن .. نظرت إليها طويلاً وبقلب نازف لم أملك إلا أن أقول لها رائعة حقاً .. وأطلقت ضحكتها عالياً وتوارت عني .. .

ابتعدت مسرعة وخلفتني وحيدة .. افقد جوعي إلى الجوار وألملم قصتي كي انثرها للريح والمطر فقصتي لاتروي فيها نجم هوى .. وجرح طغى .. وألم عريق في القدم يذكرني بأول خطيئة .. وأول جراح .. وأول يوم في تاريخ انثى .. .

اشهداني أحب

تهاطلت في مسائي الرطب هذا .. شلالاً من الندى .. تساقطت في عتمة ليلي الموجع أغنية حزينة .. وأنت تعلن لي عبر سماعة الهاتف توقيت مجيئك .. هل حقاً ستأتي ...

أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها .. وصوتك العذب يخترق عظمي .. ووجهك المحبب يطل عبر نافذة رؤياي بشاربيك العريضين، وذقنك الملساء التي تملأ صفحة وجهك الصامت الحزين .. وتطل من خلاله عيناك الصغيرتان اللتان تشعان حنيناً وثباتاً .. هل حقاً ستأتي ؟ لتنهي هذه اللعبة .. لتسعد برؤية ضحية جديدة سقطت في قاع جبروتك كسقوط حبات المطر في شتاء قاس، لتقول لي ماقالته عيناك .. إنني دمية

أخرى مللتها وطفولة لاتغري بالعبث .. لا .. الآن عندما تأتي سأقول لك أنا : غيبني عن عالمك وأهل فوقي التراب مع حطام الأخريات، فاللعبة محاجر مفقوءة بلا عيون، غيبني فلقد عزفت على قلبي لحناً مجروح الأنغام وحولت فجري العذب إلى كوكب آثم يرفض الانصياع إلا لك .. ويعلن العصيان في وجهي متحدياً كافراً ينوء بحمل سرك الدفين في أعماقي الموغلة في الألم .. ويمزق في داخلي أوتار الفرح .. يعلن عن وحشة الظلمة الأبدية في أفقي، وانتحب قدري بصمت يحكي .. ألعق مرارة الهزيمة في لوعة حزينة وأردد .. لن أهزم أمامك .. لن أهزم .. فأنا تعودت أن أواجه قدري بقوة .. وأدوس حقل الألغام متناسية اشلائي المتناثرة أعدو فوقها .. انتظرك الآن وقلبي يدميه الألم .. كيف استطعت ياغريب أن تتسلل إلى مساقط ألمي بهدوئك العميق، وتزرع مكانك في قلب موجي وعمق بحري وتختلس فجري الفضي تهدره على أحجار الطريق .. .

أتذكر كيف التقينا .. أتذكر .. كان يوماً حاراً من أيام الصيف .. يومها .. وفي مكتبة صغيرة في ركن منسي من شارع جانبي معتم تلاقينا .. قدّمك إلي صديق بعبارات مبتورة تحمل أكثر من تأويل وقدمت لك نفسي بغرور وتحد لكني بصمت جلست أرقبك .. شيء مافيك أغراني بالبحث .. وجرجرني إلى قاع عينيك كشريدة .. وبعد تعارفنا العابر هذا .. أوصلتني إلى البيت.

منذ ذاك اليوم وخلال لقاءاتنا المتتالية كنت وفي كل مرة أحس أني أبتلعك في أعماقي، وتوغلُ أنت اشتعالاً في أوردتي ومساحاتي ..

بعدها قدمت لك نفسي .. حقيقتي .. أوراقي المتساقطة على أرض يقيني وبدأت أقدم لك لوحاتي .. أدخلتك عالم ألواني .. طقوسي .. انوائي امزج ألواني وصوري .. وأشعل أصابعي فيض عطاء .. وأخرج كل يوم بلوحة جديدة تعلن ولادتك جديداً دافئاً في معبدي.. ويوم همس لي صديق بأن كل رسومي تحمل صورة وجهك كنت سعيدة .. لأني استطعت أن

اتصافى مع نفسي .. فلقد كنت بحجم كوني وعمري.. ودمعي أيضاً .. .

كنت تحتل مساحاتي وهاهي ذي لوحاتي تحمل وجهك .. وقد تسألني .. وقبلي ماذا كانت ؟ .. ماذا كانت ؟ .. كانت تحمل صوراً لرجال مشوهين متوحشين في نظراتهم سأم ورفض وفي ملامحهم فضاء مغلق .. وكانت نساؤهم تتمزق على أرصفة وهم التحدي .. حتى الأزاهير والشجر كانت تقدم هويتها اللامبالية .. وكنت أنا من ابتدع الصور تلك اتمرد أكثر منها.

لكنك انت أضفت لروحي معنى جديداً .. ولألواني أشراقةً لم أعرفها من قبل وغدوت سعيدةً، فالعالم كله تحول في نظري ومن خلالي إلى صورة واحدة سوية تحمل وجهك.

لكني مع هذا سأدعك وأرحل .. الآن عندما تأتي سيكون بيننا اللقاء الأخير .. سأرحل عن بوابة عمرك الذي فتنني على صخور الآلم المتكسرة، وحملتني على أجنحة من الوهم طارت بي بعيداً ورمتني بين الأمواج،

تركتني اتخبط في مساحه لا مقروءة .. فضاؤها مغلق...

سأدعك وأرحل .. وقد تسألني ببرود .. لِمَ سترحلين .. ؟

وسأنظر إلى جانب وجهك المحبب أختلس من عينيك نظرة عجلى وأقول لك مافعلت، سأقول لك إنك قتلت في داخلي إحساسي بنفسي .. سعادتي .. فرحي .. المي أيضاً، برودك هذا حولني إلى شبه صماء ، انظر إلى عينيك أريد مايقال ولا أجد عندك إلاّ الصمت واللامبالاة.

اتذكر أيها الحبيب .. أتذكر يوم أخذتك بفرحتي الطفولية الغامرة أعلن وفي عرسٍ حقيقي مفاجأتي .. يومها .. سحبتك من ذراعك، وفتحت لك باب مرسمي كي أريك لوحاتي .. لوحاتي الكثيرة التي اصطفت على كل الجدران، وكانت كلها تحمل وجهك .. وبذات البرود غمغمت بصوت ضعيف تعلن عن حسن اختياري لألوانك المحببة وأطيافي الملونة الجميلة التي تراءت لك ومن خلال ابتسامة ما ارتسمت على وجهك باهتة

لامبالية استطعت أن ألمح غرورك الرجولي ليقينك بأنك ملهمي، لكن ألمي تكور في داخلي مذبوحاً لأنك لم تر فيها وجهك .. وبهزيمة ألغيت فرحتي ودمرت شطآني.

عندها قلت لك : ألم ترَ فيها مايعنيك .. ضحكت .. عفواً تبسمت قليلاً وقلت لأنها بعض من فنك فهي تعنيني .. تمالكت كثيراً ساعتها وما أن أغلقت الباب وخرجت حتى داهمتني نوبة بكاء حادة عدت بعدها إلى لوحاتي أريد تمزيقها. لا .. لن أقوى على ذلك، فقط أخذت فرشاتي وغمستها باللون الأبيض وأزلت الوجوه جميعاً .. أبقيتها أجساداً لاوجوه لها، أحسست أن وجوهها تريد تمزيقي تريد انشاب أظافرها في وجهي ولحمي جعلتها حبيسة الجدران تلعق صمتها بألم مرجع.

الآن عندما تأتي سأقول لك .. سأحدثك عني أنا التي أحول كل شيء يقترب مني إلى نفسي أحرقه، وسأرجوك أن تبتعد، فلا أريد احراقك بمرجل غضبي وشكي .. أحب أن أبقى دائماً مستسلمة .. راكعة في عينيك.

كل هذا سأخبرك به عندما تأتي .. وها أنا أحرق الثواني في لجة الأنتظار القاتل وأنا أنتظرك وقد يطول بي الانتظار فهذا أنت تتركني في ألمه أكابد تمزق كبريائي وأنوثتي على أرض نزواتك وشهواتك كرجل يسحق كرامة أنثى وبصمت سأسحبك من يدك مرة أخرى إلى مرسمي اريك لوحاتي التي تحمل اللاوجود.. وستنظر إليه والصقيع يلفه .. والموت المؤقت يعلن في داخله الوجود وستجد الغبار يملأ المكان .. والألوان كلها ملطخة بالحقد تعلن العصيان، وقد تسألني بعدها .. ألا شيء جديد تقدمينه .. وسأضحك لك وبصمت أيضاً سأقول .. ريثما تستعيد سكينك التي غرستها في لحمي ويندمل جرحي عندها قد أعود... ... كل هذا سأقوله لك عندما تأتي.

* * *

ويقطع تداعيي هذا صوت بوقة يعلن المجئ .. وكالمجنونة أرتمي على درجات السلم أقفز قفزاً .. أنشب كعب حذائي في الرصيف بتحد أعمى .. أفتح باب سيارته واتهاوى على المعقد الأمامي .. انظر إليه

ملامح وجهه الهادئة لاتقول .. ويداه تتهاريان في تهالك لامبال فوق مقود السيارة.

يبتسم لي قليلاً ويقول .. كيف حالك ياغالية ؟

وبفرحة طفولية غامرة .. أقترب منه .. أضع يدي اليسرى خلف ظهره أحس أني بهذا أحتويه .. أحتوي أيامه .. والآمه .. وأنسى في ثوان كل مافكرت فيه .. وتستحيل الأشياء في نظري مرة أخرى إلى صورة وجهه فقط تشمخ بتعال وتغطي كوني وأيامي وتأخذ حجمها بكل تكويني لا .. سأعيش هذه اللحظة الجميلة ولن أفكر بعدها بالرحيل.

وعندما سألني إلى أين .. ابتسمت مزهوة .. وقلت له هذا الفضاء لنا وتراءت من بعيد أضواء المدينة مشتعلة لها عيون ضاحكة تكتم سرنا وغرقنا في شوارع المدينة كالصدفة التي يبتلعها البحر، غرقنا مبتعدين إلى حيث الفرح .. يلفنا الظلام .. .

الزيارة الليلية

في تلك الليلة كنا نحلم .. بدأ حلمنا طريفاً للغاية.. لم نكن ندري ساعتها أن حلمنا سيتحول إلى فجيعةٍ .. وأن الفجر حين يطلع من بين الزوايا المعتمة سيتحول إلى لعنة تبتلع الخوف في أعماقنا .. وأننا سنعي ذاتنا في ركام المجهول.

كانت أياماً قاسية فجرت مأساتنا جميعاً .. أياماً ركضنا فيها بين بحور الخوف والقلق .. انزلقنا في هاوية الأحتراق والألم .. أياماً كانت كافية لخروجنا من الأعماق لنرى العالم كُلٍ على حقيقته.

في تلك الليلة وبعد أن أشجانا صديقنا سهيل بعزفه الرائع على الناي، وبعد أن فجّر في داخلنا كل أحزان السنين صرخ عالياً وكأنه يخاطب المجهول :

وماذا بعد ؟ .. ونظر بعضنا إلى بعض بحيرة ولم نقل شيئاً.

كنا قلما نجتمع عنده إلا معاً .. وكنا خمسة نستمع بنايه ونجلس أمام لوحاته ساعات طوالاً نرى في احتراقه عبر رسومه أيامنا الماضية، وكان رغم الألم الدفين الموغل في أعماقه ينظر إلى الأفق نظرة طفل في مدينة الألعاب.

صرخ عماد محتجاً مؤكداً قوله : وماذا بعد ؟ دبّ حماس مفاجئ في أجسادنا لصراخه المتتالي إلاّ أدهم الذي بقي محتفظاً بصمته الطويل لايعبر عن شيء.

عاد الصمت ثانية يخيم على الجو ربما أحتراماً لصمت أدهم الذي طال قليلاً، وبعد حين خرج صوت عماد من فمه عميقاً دافئاً حين قال : أدهم أنت حزين واستدار أدهم ببطء إلى مصدر الصوت .. والتقت عيوننا جميعاً على أدهم الذي ظل صامتاً قليلاً ثم قال : البحر سيد في مملكة قلبي والنار رفيقي ومؤنستي.

راقت تلك الكلمة لسهيل فأمسك نايه مرة أخرى يعزف عليه .. ثم فجأة توقف عن العزف .. نظر إلينا جميعاً ثم قال : لاشيء هام وانفجر ضاحكاً .. ارعبنا بضحكه هذا .. جمّد الخوف في صدورنا .. وارتسمت على وجهه تعابير الألم تاركة طريقها في محياه، ثم قال : مارأيكم أن نمضي الليل في المقبرة .. نغير جو الصمت والدخان .. وهذا المكان القذر .. ولم نعترض. أيدنا الفكرة وانطلقنا . . .

كان الليل شبحاً أسود يبتلع خطواتنا، وكنا نمشي باستهتار مجنون لانلوي على شيء، وكان العالم حولنا أجساداً محنطة نمر بها سريعاً، نعبرها دون اكتراث، وفجأة توقفنا على صوت حسن الذي صرخ هاهي .. وصلنا .. واستدرنا قليلاً إلى الجهة التي أشار إليها واتجهنا . . .

كان المكان يوحي بكآبة مرّة .. وكانت الرطوبة ورائحة العفن تنطلق من أرجاء المكان إلا من الشواهد التي تصطف وراء بعضها البعض باستسلام مريع ..

وبهدوء وخشية بدأنا ندخل هذا الكهف الجهنمي، وكل منا مستسلم لأفكاره، غارق في بحره الهائج، راسماً عبر ذاكرته كوكباً لاينطفئ .. .

كان أول الركب عماد الذي تقدمنا حاملاً معه بعض الشموع ليضيء لنا الطريق ودخلنا وراءه بحذر شديد كي لاتزال أقدامنا بين تلك النتوءات الملتوية .. وفجأة توقف حسن قليلاً وقال، كاسراً الصمت المطبق الموحش :

أيها الرفاق .. مارأيكم في أن يرسل كل منا خطاباً إلى مجهول أو حبيب، ثم نبقى هنا بكل الصدق الذي بقي في العالم داخلنا، ولانخرج إلا والخوف قد طردنا وإلى الأبد من أعماقنا، قلت لهم : دعوني أرحل وسأترك لكم جسدي بين أيديكم .. سأرحل خلف نداء الفجيعة الذي ينطلق من هناك، سأرحل مع الريح لتأخذني كيف تشاء .. .

قال حسن : الأجراس في الشارع تئن .. المدينة هناك مقفلة ..

ثم فجأة يثور هائجاً .. ويصرخ عالياً صراخاً حاداً ومتقطعاً، يضرب بيديه النور الباهت الذي تخلفه الشمعة المشتعلة فيطفئه ويجلس القرفصاء في زاوية قريبة يضع يديه على عينيه يخبئهما ويصمت، فلا نسمع إلا صوت أنفاسه تخرج متحشرجة من صدره يزفر بقوة وكأنه ينتحب.

لاأدري كم مضى من الوقت ونحن على ذلك .. ربما ساعة أو ساعتان أو الليَل بطوله .. لكلننا لمحنا بصيص نورٍ ينبعث من إحدى الزوايا فعرفنا أن الشمس قد أشرقت .. وكل منا سكب جمود ساعاته في ذلك التدفق المثير لقصة لم تنته بعد.

بعد حين قال سهيل سأخرج مادمت قادراً على أن أطرد كل الخوف من أعماقي وسأترك لكم رسالة أقرؤوها بعد أن أغادر .. وقام بتكاسل شديد، فرمقنا معاً بنظره طويلة، ورمق المكان بنظرة حزن قاسية، وترك أمامنا ورقة مطوية وضعها على شاهدة القبر التي كان قد استعملها وطوال الليل كمنفضة

للسجائر.. وغادر المكان، قام عماد بهمة غريبة إلى ذلك المكان، أخذ الورقة، فتحها وقرأ بصوت عال «سوف أنتظر حتى يطلع الفجر .. ثم أقف لأمنحهم أغنياتي»

عاد الصمت من جديد يسربلنا بعاصفة من العناد.. لاشيء يخرجنا من هنا إلا بتحقيق ماعزمنا عليه .. كنا نعي مايدور في عالمنا .. مايدور في أعماقنا، ولا نريد سوى الشمس تغزو وجوهنا لنرى .. كنا نسبح في بركان من الأهواء .. لكنني فجأة تنبهت إلى حسن .. لم يغير جلسته منذ الليلة الماضية .. ولم نر النور الذي يشرق في عيونه لساعات طويلة .. نظرت إلى عماد وكان قريباً مني .. همست له ببطء ماذا به ؟ وكان هو يعلم تماماً كيف يفتح الهوة لحديث مثمر مع حسن الكاتب الرقيق الذي طالما أحيا بقصصه أحلام المدينة .. كان عماد اقربنا إليه، وكان وجود أحدهما مدعاة لوجود الآخر وكأنهما توأمان.

نظر عماد إلى حسن باشفاق مريع مهزوم الأركان، وربت على كتفه قليلاً ثم قال : حسن أتريد

قلماً وورقة ؟ نظر إليه حسن طويلاً وكانت نظرته دموعاً شفافة لالون لها ثم انفجر باكياً.

أحسسنا بالفجيعة لبكائه، حتى أدهم الذي كان صامتاً طوال الوقت ولم يقل شيئاً اقترب منه بحنو غريب وبدأ يربت على كتفه محاولاً تهدئته .. ثم محاولاً الوقوف والابتعاد عن الأرض عندما صرخ : هذه لعبة تدعو إلى الجنون، أريد أن أخرج من هذا المكان .. أريد أن أخرج.

وسبقتهم إلى الكلام قائلاً له : ليس قبل أن ننهي اللعبة .. صرخ أدهم محتجاً توقفوا عن هذه اللعبة أرجوكم أزيلوا الأقنعة التي تختبئون وراءها فلم تعد أقنعتكم تصلح لها، كفوا عن ممارسة هذا الضغط على أعصابي .. كفوا .. .

وساد الصمت بعدها قليلاً، احتراماً له، لتلك الموجة من الغضب العارم التي استحوذت عليه، ثم فجأة أمسك بالورقة وكتب عليها بضع كلمات قذف بها في الهواء وخرج مسرعاً .. .

هذه المرة كنت أنا السبّاق لامساك الورقة وقراءة مافيها

قرأتها بصوت عال على حسن وعماد وكانت تحمل العبارة التالية :

«تعالي .. وابكي معي بإخلاص»

انطلق عماد يضحك ويضحك .. يملأ أرجاء المكان الموحش بسياط ضحكه الذي يتردد صداه في أرجاء المكان، فيعطي لمكاننا هذا صدىً مخيفاً مؤلماً .. كان يضحك ويضحك .. لكني لمحت داخل أحداقه الهاربة صوت بكاء مكتوم يتلوى وكانت ضحكاته هيستيرية مكتئبة ثم توقف قليلاً وقال : من المفجع أن آتي إلى هنا، لم أشعر بالخوف في يوم من الأيام .. حاصرني اليأس وسحقني بسنابكه المرة تعذبت كثيراً، تشردتُ على كل أيام عمري .. زرعت الأمل في تلك الوجوه المنسية وحصدت اللاشيء ، وكنت في كل مرة أغترف القوة في أعماقي لأواجه الخوف أتحداه .. أقسو عليه وأستسلم لزمن آت يحملني كيفما يشاء ولا ألوي،

لكني شعرت به أخيراً، أتى قاسياً وحنوناً أتى لحظة السقوط في قاع الحب كنورس مهاجر، لحظة تدفق زمن الحب في أعماقي .. بدأت أخاف، بدأت ازرع الوهم جدراناً لعلاقتنا .. بدأت في الاستسلام لزمن الوحل والسقوط، لكني سأخرج حالاً فمخاوفي التي تسكنني اطردها كالأشباح التي تتراءى لي خلف هذه المقابر، الأشباح التي أحس بها ولا أراها، سأخرج فوراً فأحزاني ولدت من فوهة الحب، وخوفي نما في كهوفه خوفاً من ضياعه خوفاً عليه لأنه صادق، وبصوت خافت أكمل .. ولأنه كل مابقي لي ومابقي مني.

قلت له : اخرج، فهذا المكان لايناسبك حتماً، وأنا أعلم ايضاً أنك لم تواجه الخوف، لماذا جئت معنا إذن، لترى الخوف المسكون بنا يخرج فتكون شاهد موته، أم لمشاركتنا في تلك اللعبة المجنونة، لم يجبني بل نظر باتجاه حسن وقال بل من أجله، ومن أجل الربيع الأخضر الذي يتجول في عاصفة قلقه، من أجل أن

يحيا، أن أرى الخوف يحتضر في عينيه ويموت، وسأدفنه بيدي فخوفه طفل عنيد يتجول في كل أركانه ولايقوى على الخروج، نظر إليه حسن طويلاً وعيناه مبللتان بسحابة داكنة من التعب والنزف وقال : ليس سهلاً أن أنتهي .. أرجوك ابتعد فمكوثي قد يطول كثيراً .. دع رسالتك وارحل، وحين أعود سأعود بلا حزن ولا دموع واستدار عائداً إلى مكانه المعهود يغلق عينيه بصمت موجع ولايقول شيئاً.

وكان لابد لي من الخروج بعدها، كان هذا المهرجان الصاخب يملؤني نقمة وألماً لماذا الخوف ونداء الفجيعة يشدني إلى هناك .. وبدون أن أقول شيئاً تركت لهم مايذكرهم بأني كنت معهم. "تعالوا نبتسم" وخرجت.

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا أتجول في شوارع المدينة قبل أن يحل الظلام شريداً وأنا هناك، أذكر أني دخلت أثناء تجوالي إلى سيرك فيه مهرجون ووقفت كثيراً أتأمل الوجوه جميعاً، وأسأل نفسي أيهم

يحمل القناع وأيهم بلا قناع، وعندما تعبت من الإجابة سحبت خطاي بتكاسل وذهبت إلى سهيل.

وجلسنا نحن الثلاثة، أنا وهو وأدهم ننتظر الأخرين .. وطال انتظارنا كثيراً ربما أربعة أيام أو أكثر عندما فاجأنا وجه عماد المتعب وكأنه دار العالم مشياً على الأقدام، كان مرهقاً مكتئباً وعندما طالعنا وجهه قال : العالم نكته رديئة الملامح وذهب إلى النوم.

لم يستطع أحدنا أن يسأله عن مصير رسالته وعن حسن الذي بقي هناك وانتظرنا كثيراً قبل أن يستيقظ، ولأول مرة لانريد أن نعترف بأننا لم نطرد الخوف فعلاً لأننا عشنا القلق عليه، لكننا تماسكنا ولم يسأل أحدنا الآخر عن حسن، لكن عيوننا كانت تنظر إليه وألف سؤال يجول في أعماقنا.

واستفاق أخيراً بعد أن طرد شبح النوم عن أهدابه، ونظر إلينا ونحن مجتمعون حوله وقال وكأنه قرأ مايجول بداخلنا "لابد أن تنمو الشمس في أهدابه، أنا لست خائفاً عليه" ثم قال ليبتلعنا زمن الصمت والطوفان.

تكومنا في زاوية ما بأجسادنا المتعبة ننفث الدخان بصمت مجهول ريثما يأتي صديقنا وطال انتظارنا كثيراً .. ربما دهراً أو أكثر لا أدري، لكننا وبعد أن يئسنا من عودته قال سهيل لابد من الذهاب إلى هناك، لابد لنا من البحث عنه فقد طال زمن الأنتظار ووجدنا أنفسنا نتجه معاً إلى ذلك المكان، إلى تلك المقبرة التي كانت شاهد طقوس الطوفان في أعماقنا .. اندفعنا متراكضين إلى حيث تركنا حسن، غرسنا نظرنا في ذلك المكان المقفر فلم نجد سوى الظلام الذي ينزفه المكان، وميزنا فيه بقية أعقاب السجائر، وأوراقنا على شاهدة القبر تنتظر هناك .. ولم نجد أثراً لحسن واطلق عماد صوته الذي تردد في جنبات المكان .. حسن أين أنت إلا أن الصدى رجع إلينا متعباً ولم يعد حسن.

اقتربت من شاهدة القبر وفتحت الورقة المنتظرة هناك فوجدت فيها رسالة تقول : "إلى سكينتي وعاصفتي .. إلى الألم الذي فتح في أعماقي كوة

الأمل والحلم إليك أيتها الحبيبة أهدي خوفي ونزفي"
وكان التوقيع عماد.
بقي علينا أن نجد حسن ورسالته الضائعة ..
وبحثنا كثيراً وطويلاً وطال زمن الاحتضار في أعماقنا ولم نجد شيئاً، وخرجنا من كهفنا متقلين بحزن دامٍ متعب .. نمضي أياماً أخرى في البحث عنه .. ولم يعد، بعد أيام قال عماد سأعود وحدي إلى المقبرة عسى أن أجده .. .
دب حماس مفاجئ في داخلنا ويشعف قلنا
سننتظرك .. .
وعاد بعد ساعات متكسر الجفون متعب القلب وبيده ورقة بسطها أمام أعيننا وجلس صامتاً.
أمسك أدهم الورقة وقرأ فيها " قررت أن أكتشف المدينة الغامضة القريبة بعد أن ودعت خوفي وخلفت نفسي وطفولتي وزمني وكآبتي في وجدانكم، لاتبحثوا عني فمن يسير في هذا الطريق لايعود ..
حسن
ونظر بعضنا إلى بعض في صمت وألم .. ولم يقو أحدنا على الكلام.

المحتوى

هذا الكتاب

... والراصد لتطور القصة المعاصرة عند «إحسان» يحس بأنه يتجه نحو صوت نسائي يتحدى المقومات التقليدية. فالإبداع لديها إدراك ووعي فهي تستطيع السيطرة على زمن اللحظة المبدع، وتقتنص الومضة الحالمة لتحتضن رؤية عالمها الحضاري. كما تمتلك الوحدة الفنية التي تربط عناصر القصة بسلامة الكلمة ووضوح الفكرة فتلتزم في قصصها حرية التعبير عن المشاعر الانثوية [illegible] وصراع المرأة في المجتمعات الشرقية [illegible]

عبد اللطيف أر[illegible]

السعر ٦٠ ل . س

دار المنهل للتأليف والترجمة والنشر

ص . ب ٥٨٢٣